

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

حِينَ يَنْهَشُ اللِّسَانُ كَرَامَةَ الْإِنْسَانِ وَيَصْنَعُ الْمَالُ وَهَمَّ الْخُلُودِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

حِينَ يَنْهَشُ اللِّسَانُ كَرَامَةَ الْإِنْسَانِ وَيَصْنَعُ الْمَالُ وَهُمْ الْخُلُودُ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

مِنَ الْكَلِمَةِ الْجَارِحَةِ إِلَى النَّارِ الْمُحِطَّةِ

ليست سورة الهمزة حديثاً عابراً عن سيئةٍ من سيئات اللسان، ولا موعظةً جزئيةً تحذّر الإنسان من السخرية والغيبة ثم تنتهي مهمتها عند حدود الأدب الاجتماعي، إنها تشرّحُ قرآنيُّ نافذ لبنيةٍ كاملة من الفساد الإنساني، يبدأ ظاهرها بحركة لسان أو إشارة عين أو انقباض شفة، ويمتد باطنها إلى تصوّر مشوّه عن الإنسان والقيمة والمال والزمن والخلود، ثم ينتهي بصاحبه إلى «الحطمة»؛ النار التي لا تكتفي بأن تمسّ ظاهر الجسد، بل تطّلع على الأفئدة، كأن الجزاء يعود إلى الموضع الخفي الذي وُلدت فيه الجريمة قبل أن تصير كلمةً على اللسان، أو لمزةً في الوجه، أو ضحكةً تسحق كرامة إنسان.

إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، ولكنها شديدة الاتساع في مداها الأخلاقي والنفسي والحضاري؛ تسع آيات فقط، غير أنها تقيم محكمةً كاملةً للإنسان حين يتحوّل من عبدٍ لله إلى قاضٍ متكبرٍ على عباد الله، ومن

مستخلفٍ في المال إلى عابدٍ للمال، ومن كائنٍ يعرف فنائه إلى مخلوقٍ يتصرف كأن ما في يده قد منحه حصانةً من الموت. وفي كلمات معدودة تنكشف أمامنا صلةٌ دقيقة بين آفتين قد تبدوان منفصلتين: احتقار الناس، وجمع المال. فليس الهمز والهمز في السورة مرضاً قائماً وحده، وليس عدُّ المال مرضاً آخر لا صلة له به، بل هما ثمرتان لجذرٍ واحد: شعور النفس بأنها أعلى من غيرها، وأن ما تملكه يهبها الحق في أن تزن الناس بميزانها، وترفع من تشاء، وتسقط من تشاء، وتوزع الكرامة كما لو كانت مالكةً لها.

تبدأ السورة بكلمةٍ كأنها صاعقة تسبق التعريف بالجرime: ﴿وَيْلٌ﴾، وتنتهي بصورةٍ لا منفذ منها ولا أفق وراءها: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۖ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾. وبين الافتتاح والختام تسير النفس المتكبّرة من وهم السيطرة إلى حقيقة الحصار؛ فقد كان صاحبها يفتح أفواه الناس للحديث عن عيوبهم، فإذا النار تُغلق عليه أبوابها، وكان يظن أن المال يوسّع وجوده ويمدّ بقاءه، فإذا هو ينتهي في عمِدٍ ممدّدة لا تمتدّ به إلى حياة، بل تُحكم عليه الإغلاق والعذاب. وكان ينبذ الناس بالكلمات والإشارات، فإذا به هو الذي يُنبذ في الحطمة: ﴿كَأَلَّا يُبَذَّنَ فِي الْحُطْمَةِ﴾. إنها عدالة القرآن حين يعيد الفعل إلى صاحبه، ويحوّل ما مارسه في الخفاء إلى مصيرٍ ظاهر لا مهرب منه.

وسنقوم في هذه الرحلة التدرية على منهج يبدأ من ألفاظ السورة ونظمها وسياقها، مستضيئاً بما قرره أئمة التفسير واللغة، ثم ينتقل من الدلالة الأصلية إلى آفاقها التربوية والإنسانية، من غير أن يفصل التأمل عن التفسير، ولا أن يستبدل بالمعنى القرآني رموزاً ذهنيةً تُذيب حقيقة الآخرة أو تحوّل وعيدها إلى مجرد استعارة نفسية. فالحطمة نارٌ من نار الآخرة كما أخبر الله، والعذاب حق، والإيصاد حق، والجزاء حق؛ ثم إن لهذه الحقائق الأخروية ظلالاً تمتد إلى النفس والحياة، وتكشف لنا منذ الدنيا طبيعة الطريق الذي ينتهي إلى ذلك المصير.

وسنقرأ السورة بوصفها بناءً متماسكاً، لا مجموعةً من التحذيرات المتجاورة؛ فهي تنتقل من الجريمة الاجتماعية في ﴿هَمْزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، إلى منبعها المادي والنفسي في ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾، إلى الوهم العقدي الكامن وراءها في ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾، ثم تهدم هذا الوهم بكلمة الردع القاطعة ﴿كَلَّا﴾، قبل أن تنتقل صاحب الجريمة من مجلس استعلائه بين الناس إلى موضع نبذه في الحطمة، ثم تكشف عن طبيعة النار وبلوغها الأفئدة وإغلاقها المحكم. وهكذا تبدأ السورة بإنسانٍ يظن أنه قادر على تمزيق سمعة الآخرين، وتنتهي بنارٍ تحطّم الوهم الذي بنى عليه وجوده كله.

إن سورة الحمزة لا تسألنا فقط: ماذا تقول ألسنتنا عن الناس؟ بل تسأل سؤالاً أعمق وأخطر: ما التصوّر الذي نحمله عن الإنسان حتى نسمح لأنفسنا بإذلاله؟ وما الذي يجعلنا نرى العيوب أسرع مما نرى الفضائل؟ ولماذا يجد بعض الناس لذة خفية في إسقاط الآخرين؟ وهل يتحوّل المال، حين يفارق معنى العبودية والاستخلاف، إلى آلةٍ لإعادة ترتيب البشر وفق ميزان المنفعة والسطوة؟ وكيف يصنع التكرار من الحمز واللمز شخصيةً لا تعرف نفسها إلا من خلال تحقير غيرها؟ ثم كيف يكشف الموت هشاشة الإنسان الذي قضى حياته يعدّ ماله ولم يعدّ أيامه، ويحفظ أرصده ولم يحفظ قلبه، ويحصى ما دخل خزائنه ولا يحصى ما خرج من لسانه؟

هذه السورة مرآة لا ينبغي أن نقف أمامها لنبحث عن وجوه الآخرين، بل لنرى وجوهنا نحن. فالقرآن حين يصوّر نموذجاً منحرفاً لا يمنح قارئه مقعد المتفرّج البريء، وإنما يدعوه إلى أن يفتّش عن بذور هذا النموذج في دخيلة نفسه: عن اللمزة الصغيرة التي يستهين بها، وعن النبذة التي تحمل احتقاراً مستتراً، وعن الضحكة التي تُبنى على جرح إنسان، وعن المال حين يتسلّل من اليد إلى القلب، وعن الوهم الذي يجعل المرء يؤجّل توبته كأن العمر قد كُتب باسمه إلى الأبد.

إنها رحلة من ظاهر الجوارح إلى باطن الأفئدة، ومن السوق الذي يُجمع فيه المال إلى النار التي تحطّم أوهام مالكة، ومن ضجيج المجالس التي تُنْهَش فيها الأعراض إلى الصمت المطبق خلف الأبواب المؤصدة. وفي كل مرحلة ستعيد السورة تعريف القوة والضعف، والغنى والفقر، والرفعة والسقوط؛ حتى ندرك أن الضعيف ليس من عجز عن الرد على من لمزه، بل من احتاج إلى إذلال غيره كي يشعر بقيمته، وأن الفقير ليس من قلّ ماله، بل من لم يجد في نفسه معنىً يستغني به عن التفاخر بما في يده، وأن الهالك ليس من نُبذ بين الناس، بل من عاش ينبذهم حتى انتهى هو منبوذًا في الحطمة.

الفصل الأول

حين يتحوّل اللسان إلى سلاح

قول الله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

تبدأ السورة بكلمة واحدة تحمل ثقل المصير كله: ﴿وَيْلٌ﴾. لا تبدأ بتفصيل الجريمة، ولا باسم المجرم، ولا بحكاية واقعة انتهت في زمنها؛ بل تبدأ بالوعيد، كأن الجريمة من الوضوح والخطر بحيث يسبق الحكم شرحها، وكأن السماء تقطع ضجيج المجالس التي تُتداول فيها الأعراض بكلمة لا تحتمل العبث: وَيْلٌ. إنها كلمة تهديد وهلاك وعذاب، تنزع عن الهمز واللمز ثوب الخلفة الذي يكسوهما الناس، وتخرجهما من دائرة المزاح العابر إلى ساحة الحساب. فما يراه الجالسون طرفةً قد يراه الله ظلماً، وما يمرّ بينهم في لحظة قد يبقى في صحيفة صاحبه إلى يوم القيامة، وما يضحك له المجلس قد تبكي منه روح إنسانٍ أعواماً لا يعلم بها أحد إلا الله.

ولم تقل الآية: ويل لمن همز أو لمز مرةً فندم وتاب؛ بل جاءت بالصيغة الدالة على تحوّل الفعل إلى صفة راسخة: «هُمَزَةٌ لَمْزَةٌ». إننا لسنا أمام زلّة لسان منفردة، وإنما أمام شخصية أعادت ممارسة الاحتقار حتى صار الهمز طبعها، واللمز عاداتها، والبحث عن عيوب الناس مهنتها النفسية. إنها نفسٌ لا تدخل مجلساً إلا وفنّشت عن غائب تمرّق سمعته، ولا تقع عينها على إنسان إلا التقطت منه ما يصلح للسخرية، ولا تسمع فضيلةً لأحد إلا بحثت عن عيبٍ يطفئ نورها. لقد أدمنت الإنقاص من الآخرين حتى أصبحت عاجزةً عن الإحساس بوجودها إلا إذا صغّرتهم، وعن الشعور بارتفاعها إلا إذا دفعتهم إلى الأسفل.

وقد اختلفت عبارات أهل اللغة والتفسير في التمييز الدقيق بين الهمز واللمز؛ فقليل: الهمز يكون بالفعل والإشارة والغمز، واللمز يكون باللسان، وقيل بعكس ذلك، وقيل هما متقاربان يجمعهما الطعن والعيب والانتقاص. وهذا التنوع لا يبدّد المعنى، بل يكشف سعته؛ فالسورة تحاصر كل وسائل الإيذاء التي يتسلّل بها الاحتقار من نفسٍ إلى نفس: كلمةٌ كانت أو إشارة، تصريحاً أو تلهيحاً، مواجهةً أو غيبة، حركة عين أو تقليد هيئة، نبرة صوت أو ابتسامةٌ خبيثة تفهم منها الجماعة ما لا يُقال صراحة. فالكرامة قد تُجرّح بحرف،

وقد تُذبح بنظرة، وقد يشعر الإنسان أنه أهين في مجلس كامل دون أن يسمع اسمه مرةً واحدة.

إن اللسان ليس عضواً صغيراً حين يتحرك في ميزان الأخلاق؛ إنه قدرة على البناء والهدم، وعلى التطيب والتسميم، وعلى ردّ الروح إلى إنسان أو دفعها إلى زاوية الانكسار. والكلمة لا تُقاس بحجمها في الفم، بل بحجم ما تُحدثه في القلب. قد يقول المرء جملةً لا تستغرق ثواني، ثم يغادرها كما يغادر العابر ظلّ شجرة، بينما تظلّ هي مقيمةً في صدر من أصابته، تعيد نفسها كلما خلا إلى نفسه، وتعبث بصورته عن ذاته، وتسرق طمأنينته، وتشوش علاقته بالعالم. ولهذا جاء الوعيد شديداً؛ لأن الله لا ينظر إلى الكلمة من جهة خفتها على قائلها، بل من جهة حقيقتها وعدوانها وأثرها في عباده.

والهمزة اللمزة لا يرى أمامه إنساناً كرمه الله، بل مادةً تصلح للاستهلاك في مجلس. يحول خلقه الإنسان أو فقره أو لكنته أو ماضيه أو عثرته أو جهله أو ضعف منزلته إلى مشهدٍ للتسلية، ثم يطلب من الضحية أن تتسع صدرها لما يسميه مزاحاً. وهنا تبلغ القسوة درجةً مضاعفة: فهو لا يكتفي بجرح الإنسان، بل يطالبه بأن يتسم لجرحه، فإن تألم اتهمه بضيق النفس، وإن دافع عن

كرامته صوره عاجزاً عن تقبّل الدعابة. وهكذا يُعاقَب المجرّح مرتين: مرةً حين يُهان، ومرةً حين يُلام لأنه شعر بالإهانة.

غير أن القرآن ينزع عن الجريمة أسماءها المزيّفة. لا يسمّيها خفة روح، ولا ذكاءً اجتماعياً، ولا قدرةً على كشف الناس، بل يسمّي صاحبها ﴿هُمَزَةً لُمَزَةً﴾، ويضع أمامه كلمة ﴿وَيْلٌ﴾. فالبيان الذي يُستخدم لسحق الكرامة ليس بلاغة، وسرعة البديهة التي تُنفق في إذلال الناس ليست فضيلة، والقدرة على اكتشاف العيوب لا تدل دائماً على نفاذ البصيرة؛ فقد تكون دليلاً على فساد القلب الذي لا يرى من الوجوه إلا مواضع النقص، كما لا يقع الذباب إلا على الجرح ويجاوز بقية الجسد.

وتكشف الآية عن حقيقة نفسية دقيقة: أن الذي يكثر من تصغير الناس لا يكون في الغالب ممتلئاً بقيمته، بل هارباً من فراغه. إنه يخشى أن يقف أمام نفسه بلا جمهور وبلا ضحية، ولذلك يصنع من عيوب الآخرين ستاراً يحجب به عيوبه. وكلما أحسّ في داخله بضآلةٍ بحث عن موضعٍ يضعه تحته، وكلما خاف أن ينكشف سارع إلى كشف سواه، وكلما رأى فضيلةً تهدّد صورته المتضخمة حاول أن يلطّخها بلهزةٍ أو يسقطها بهمزة. إنه لا ينتصر على الآخرين، وإنما

يؤجل لقاءه بنفسه؛ ولا يثبت علوه، بل يعلن في كل إساءة أنه لا يستطيع الشعور بالعلو إلا فوق أنقاض كرامة إنسان.

ولهذا جاءت كلمة ﴿لَكُلِّ﴾ لتجاوز الشخص الواحد والواقعة الواحدة، وتكشف النموذج أينما تكرر. فالسورة لا تحبس معناها في رجلٍ من قريش قيل إنها نزلت فيه، وإن كانت أسباب النزول والوقائع التاريخية تعين على فهم السياق؛ لأن التعبير القرآني عام، والوعيد متوجه إلى كل من تحققت فيه الصفة. قد يظهر الهمزة اللمزة في مجلس صغير، وقد يظهر في منبر واسع، وقد يحمل اليوم هاتفاً يصل به صوته إلى آلاف الناس، فيحول الإيذاء الفردي إلى صناعة جماهيرية، والشماتة إلى مادة رائجة، والفضيحة إلى سلعة، ثم يقيس نجاحه بعدد الذين ضحكوا وصفقوا وتناقلوا الإهانة.

وإذا كانت الكلمة في الأزمنة الماضية تنتهي عند جدران المجلس، فإنها في عالمنا تستطيع أن تعبر القارات، وأن تبقى محفوظةً بعد أن ينسى قائلها لحظة كتابتها. قد يكتب الإنسان تعليقاً ساخراً في ثوانٍ، ثم ينام، بينما يصل تعليقه إلى قلب شخص لا يعرفه فيثقل ليله، أو إلى بيت فيورث خصومة، أو إلى جمهور فيفتح باب تمر لا يغلق. وهنا لا نغير حقيقة الآية، بل يتسع مجال ظهورها؛ فقد أصبحت الهمزة الواحدة قادرةً على أن تستنسخ نفسها في آلاف الألسنة،

واللمزة الصغيرة قادرةً على أن تتحول إلى مناخٍ عام يُباح فيه عرض الإنسان لأنه أخطأ، أو خالف، أو ضعف، أو لم يحسن الدفاع عن نفسه.

ولا يعني تحريم الهمز واللمز إلغاء النقد، ولا تحويل المجتمع إلى مساحةٍ يُمنع فيها بيان الخطأ؛ فالقرآن نفسه يفرّق بين النصيحة والتشهير، وبين تقويم الفعل وتحطيم صاحبه، وبين العدل في الحكم واللذة في الفضيحة. النقد يطلب إصلاح الإنسان أو حماية الحق، أما اللمز فيطلب إذلاله. النقد يتوجه إلى الفكرة أو الفعل بالهجة، أما الهمز فيطعن في الهيئة والنسب والكرامة، أو يستخرج من الخطأ متعةً للمتفرجين. النقد العادل يحزن لوقوع الخطأ ولو اضطر إلى بيانه، أما اللمزة فيفرح لأنه وجد ما يطعن به. الفارق بينهما ليس في العبارة وحدها، بل في القلب الذي يقف وراء العبارة، وفي الغاية التي يقصدها، وفي القدر الذي يتجاوزه الإنسان من بيان الباطل إلى التشفي من صاحبه.

إن أول ما تربيّه هذه الآية في القلب هو الهيبة من حقوق العباد. فرب كلمة استغفر قائلها منها وظن أنه قد أغلق ملفها، بينما بقي حق المظلوم قائماً؛ لأن الذنب لم يكن بينه وبين الله وحده، بل تعلّق بكرامة إنسان. وما أيسر الاستغفار على اللسان، وما أصعب أن تجمع الشظايا التي بعثرتها في نفس

غيرك، أو أن تسترد كلمةً أطلقتها في الناس وقد صارت ألسنةً كثيرة. ولهذا كان العاقل شديد الحذر من المزاح الذي مادته إنسان، ومن المجلس الذي لا يزدهر إلا على حساب غائب، ومن الصحبة التي تجعل قبورك فيها مشروطاً بأن تشاركها نهش الأعراض.

وللآية وجه آخر بالغ العمق: إنها تحرّر الإنسان المجروح من ميزان المستهزئين به. فالذي لمزك لا يملك تعريف حقيقتك، والذي ضحك من ضعفك لا يملك نزع كرامتك، والذي حاول تصغيرك لم يزد على أن كشف صغره ما في نفسه. لقد تولّى الله الدفاع عن الكرامة الإنسانية حتى افتتح السورة بوعيد المعتدي، ولم يطالب المظلوم أن يثبت قيمته أمامه. يكفي أن الله رأى الإشارة الخفية، وسمع الكلمة المواربة، وعلم بما انكسر في القلب، ولم يجعل الجريمة تضيق لأنها لم تترك جرحاً منظوراً على الجسد.

إن بعض الجراح لا تنزف دمًا، ولذلك يستهين بها الناس؛ لكن الله الذي يعلم السر وأخفى لا يحتاج إلى أثر ظاهر كي يعلم مقدار الألم. وربّ إنسانٍ عاش طويلاً وهو يحمل في داخله كلمةً قيلت له في طفولته، أو سخريةً أصابته في فقره، أو تعبيراً بلونه أو خلقته أو نسبه أو عجزه؛ نسيها قائلها وبقيت في الضحية كشوكةٍ لا يراها أحد. تأتي سورة الهمزة لتقول إن ميزان الله لا ينسى ما نسيه

المعتدي، وإن اللحظة التي مرّت في الأرض خفيفةً قد سُجِّلَتْ في السماء كاملة.

وتضع الآية المؤمن أمام امتحان يومي بالغ الدقة: ماذا يحدث في قلبك حين يُذكر عيب إنسان؟ هل تحزن وتستر وتنصح، أم تشعر بلذّة خفية لأن صورة غيرك قد اهتزت؟ ماذا تفعل حين يغادر أحدهم المجلس؟ هل تحفظ غيبته كما تحب أن تحفظ غيبتك، أم تبدأ حياته الحقيقية في حديثك بعد انصرافه؟ هل تستخدم ذكاءك لتبحث للناس عن مخارج وأعداء، أم لتحاصرهم بالظنون والتأويلات؟ وهل تستطيع أن ترى إنساناً مختلفاً عنك دون أن تحوّل اختلافه إلى مادةٍ للاحتقار؟

ليس المقصود أن يعيش المؤمن صامتاً عاجزاً عن التمييز، بل أن يكون لسانه محكوماً بالعدل والرحمة والمسؤولية. فقد يعرف الخطأ ولا يشمت، ويرد الباطل ولا يهتك صاحبه، ويختلف بقوة دون أن يسلب خصمه إنسانيته. والرفعة الأخلاقية ليست أن تعجز عن إيذاء من آذاك، بل أن تقدر ثم تمتنع لأنك تخشى الله، وأن تملك العيب الذي لو كشفته لأوجعت صاحبه ثم تستره، وأن يفتح لك الغضب أبواب الفجور كلها فتغلقها بيد التقوى.

وهكذا تفتتح سورة الهمة رحلتها من أخطر نقطة في الإنسان: من قدرته على أن يجعل أخاه موضوعاً لا ذاتاً، وحكايةً لا حرمة، وأداةً للضحك لا روحاً لها تاريخها وآلامها وأسرارها. وقبل أن تنتقل السورة إلى المال، تكون قد كشفت أن الجريمة بدأت من انقلاب الميزان الداخلي؛ إذ لم يعد الإنسان يرى قيمة الناس بما أودع الله فيهم من الكرامة، بل بما يملكونه من قوةٍ تمنع السخرية منهم، أو ضعفٍ يتيح له اقتراسهم.

لكن السؤال الذي تفتحه الآية ولا تجيب عنه وحدها هو: من أين جاء هذا الاستعلاء؟ وما الذي منح الهمة الهمة شعوره بالتفوق والحصانة؟ هنا تنتقل السورة في الآية التالية إلى الجذر الذي يغذي هذا السلوك: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾. خلف اللسان الجارح خزينةٌ يظن صاحبها أنها رفعت فوق الناس، وخلف السخرية ميزانٌ ماديٌّ فاسدٌ يقيس البشر بما في أيديهم، وخلف الهمز واللمز قلبٌ لم يعد يرى المال نعمةً عابرة، بل شهادةً على الاستحقاق وذريعةً إلى الاستكبار.

وبذلك لا تتركنا الآية عند حدود ضبط الكلمات، بل تقودنا إلى تطهير المنبع الذي تخرج منه الكلمات؛ لأن اللسان لا يصنع قسوته وحده، وإنما يترجم ترتيباً خفياً استقر في القلب. فإذا استقام القلب، عرف أن كرامة

الناس ليست ميداناً للعب، وأن ستر العيوب عبادة، وأن الرفق قوة، وأن من
احتاج إلى كسر إنسان كي يبدو كبيراً قد أعلن - من حيث لا يشعر - أنه أصغر
من الصورة التي يحاول أن يصنعها لنفسه.

الفصل الثاني

حِينَ يَخْرُجُ الْمَالُ مِنَ الْيَدِ وَيَسْكُنُ الْقَلْبَ

قول الله تعالى:

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾

بعد أن كشفت الآية الأولى وجه الإنسان وهو ينهش كرامة الآخرين بلسانه وإشاراته، تنتقل السورة مباشرة إلى ما وراء ذلك الوجه، إلى الخزيعة الخفية التي يستمد منها شعوره بالتفوق، وإلى المصدر الذي أوهمه أنه يملك حق الحكم على الناس وازدراءهم: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾. فكان السورة تقول لنا: لا تنظروا إلى اللهزة وحدها، بل انظروا إلى التصوير الكامن خلفها؛ فاللسان الجارح لم يتحرك في فراغ، وإنما تحرك تحت تأثير نفسٍ جعلت المال معياراً للرفعة، ثم نظرت من فوق رصيدها إلى من هم دونها، ونسيت أن المال الذي رفع صاحبه في أعين الناس قد يخفضه في ميزان الله إذا تحول من نعمة في اليد إلى صنم في القلب.

إن الآية لا تقول: الذي له مال، ولا تجعل مجرد الغنى جريمة، فكم من غني عرف حق الله في ماله، وجعل مما آتاه الله سترًا لفقير، وفرجًا لمكروب، وبناءً لمصلحة، ونصرةً لحق، ولم يزد المَال إلا تواضعًا وشكرًا. وإنما ترسم الآية هيئةً نفسيةً مخصوصة: جمعٌ يستغرق الهم، وتعددٌ يستعبد القلب، ومالٌ لا يجري في الحياة ليؤدي وظيفته، بل يترأ كم حول صاحبه حتى يتحول إلى جدارٍ يفصله عن معنى العبودية وعن آلام البشر. الجريمة ليست أن يدخل المال إلى خزانتك، بل أن تدخل الخزانة إلى قلبك؛ وليست أن تملك المال، بل أن يملك المال نظرتك إلى نفسك وإلى الناس وإلى المستقبل.

وجاء الفعل ﴿جَمَعَ﴾ ليصور حركة الامتلاك المستمرة؛ جمع من هنا وهناك، وأضاف رقمًا إلى رقم، ومالًا إلى مال، حتى أصبح الجمع غايةً لا وسيلة. فالمال في أصل وظيفته يُجمع لينفق في مقصد، أو ليقم حياةً، أو يحفظ أسرةً، أو يحقق كفايةً، أو يدفع حاجةً، أما هذا النموذج فإنه يجمع لأن فعل الجمع نفسه صار يمنحه شعورًا بالقوة. لم يعد يسأل: ماذا يفعل المال في الحياة؟ بل يسأل فقط: كم صار عندي؟ ولم يعد ينظر إلى النعمة من جهة واجبها ورسالتها، بل من جهة قدرتها على تضخيم صورته في داخله وفي أعين الناس.

ثم لم تكف الآية بقوله: ﴿جَمَعَ مَالًا﴾، بل أتبعها بقوله: ﴿وَعَدَّهٗ﴾. والتضعيف في «عدد» يوحي بالتكرار والتكثير؛ فهو لا يعدّه مرةً ليعرف مقداره ويخطّط لشؤونه، وإنما يعود إليه المرة بعد المرة، يستخرج من أرقامه طمأنينةً كاذبة، ويفقد زيادته كما يفقد المؤمن قلبه وعمله. ينام وقد راجع أعداده، ويستيقظ ليعيد مراجعتها، ويفرح لأن الرقم ارتفع، ويحزن لأن الزيادة لم تبلغ ما أراد، حتى يصبح عمره كلّ هامشاً صغيراً على دفتر الحساب.

بين ﴿جَمَعَ﴾ و﴿عَدَّهٗ﴾ مسافةٌ تكشف تحوّل المال من شيءٍ خارج الإنسان إلى هاجسٍ داخله؛ فالجمع فعل اليد، والتعدد فعل القلب والعقل، وحين يلتقيان على غير هدى يصبح الإنسان محاصراً بما ظن أنه يحميه. إنه يبني حول ماله الأسوار، ولا يشعر أن المال قد بنى حول روحه سوراً أغلظ؛ ويغلق عليه الخزان، ولا يدري أنه أغلق به منافذ الرحمة في نفسه؛ ويخشى عليه من اللصوص، بينما يسرق المال منه عمره وطمأنينته وحرية قلبه من غير أن ينتبه.

وهنا يظهر التناسب العميق بين الهمزة اللزمة وبين جامع المال المعدّد له؛ فن جعل المال ميزان القيمة لن نستطيع أن ننظر إلى الناس نظرةً سوية. سيرى الغنيّ أكبر من حقيقته لأنه يملك، ويرى الفقير أصغر من حقيقته لأنه لا يملك، ويقرأ الوجوه كما يقرأ قوائم الأرباح والخسائر؛ فهذا نافع فيقترب

منه، وهذا ضعيف فلا يرى ضرورةً لاحترامه، وهذا ذو جاه فيصمت عن عيوبه، وهذا لا سلطان له فيجعله هدفًا للضحك واللمز. وعندما يتحول المال إلى ميزانٍ للإنسان نتصدّع العدالة من جذورها، لأن البشر لا يعودون أرواحاً مكرّمة، بل درجاتٍ متفاوتة في جدول المنفعة.

إن الهمز واللمز عنفٌ باللسان، وجمع المال على هذه الصورة عنفٌ بالميزان؛ الأول يحطّم صورة الإنسان أمام الناس، والثاني يحطّم قيمته في قلب صاحبه. وما كان اللسان ليستبيح الكرامة لو لم يكن القلب قد أسقطها أولاً. فالإنسان لا يطعن عادةً فيمن يعترف له بحرمة عميقة، وإنما يبدأ العدوان حين يعيد تعريف ضحيته بوصفها أقل منزلةً، وأدنى شأنًا، وأضعف من أن يكون لألمها اعتبار. والمال حين يتأله في النفس يسهّل هذا الانقلاب؛ لأنه يمنح صاحبه وهمًا بأنه من طينة أعلى، وأن من قلّ نصيبه من الدنيا قد قلّت قيمته في الوجود.

لكن المال لا يحمل هذه الجريمة في ذاته؛ فهو صامتٌ لا يأمر بخير ولا بشر، وإنما يكشف القلب الذي يحمله. قد يدخل المال يد رجل فيظهر كرمه، ويدخل يد آخر فيظهر خوفه، ويدخل يد ثالث فيكشف شخّه واستعلاءه. إنه امتحانٌ لا شهادة تكريم مطلقة، وأداةٌ لا تعريفٌ للإنسان، وعاريةٌ موقوتةٌ لا

جزءاً خالداً من الذات. غير أن صاحب السورة لم يعد ينظر إليه بهذه العين؛ لقد التصق ما يملك بما يظن أنه يكونه، حتى صار نقصان المال عنده نقصاناً في ذاته، وزيادته زيادةً في مقامه، وانتقاد طريقته في جمعه هجوماً على وجوده كله.

وحين يقول الله: ﴿مَالًا﴾ منكراً، تبدو ضخامة المال التي ملأت وعي صاحبه صغيرةً أمام الخطاب الإلهي؛ ذلك الذي له في عين مالكة أسماء وأرقام وحسابات وخزائن، تختصره السماء في كلمةٍ منكرة: «مَالًا». فما هذا الذي ملأ عليك قلبك؟ شيءٌ عارضٌ من متاع الأرض، لم يكن معك حين خرجت إلى الدنيا، ولن يصحبك منها إلا بمقدار ما قدّمت منه لله. لقد منحته في وعيك حجم الأبد، وهو عند الحقيقة جزءٌ صغير من امتحانٍ قصير.

إن جامع المال لا يدرك أن المال الذي يحصيه إنما يقتطع وقت جمعه من عمره، وأن كل رقم أضافه قد دفع مقابله جزءاً من زمن لا يعود. هو يظن أنه يراكم المال وحده، لكنه في الحقيقة ينفق العمر في تراكمه؛ وكلما قال: ازدادت ثروتي، كان ينبغي أن يسمع في الجانب الآخر من الوجود صوتاً يقول: ونقصت أيامي. غير أن الأرقام الظاهرة تحجب الرقم الخفي؛ يحصي ما دخل حسابه ولا يحصي ما خرج من عمره، ويراقب حركة الأرباح ولا

يراقب حركة الشيب في رأسه، ويحسب المسافة بينه وبين هدفه المالي، ولا يحسب المسافة التي بقيت بينه وبين قبره.

وهنا تكمن مأساة التعديد: أنه يمنح الإنسان وهم السيطرة على ما يمكن حسابه، ثم ينسيه أعظم الحقائق التي لا يملك حسابها. يستطيع أن يعرف مقدار ماله إلى أدق رقم، لكنه لا يعرف كم بقي له من الأنفاس؛ يعرف مواعيد الاستحقاقات، ولا يعرف موعد موته؛ يضع خططاً لسنوات قادمة كأن الزمان قد وقّع له عقد البقاء، ثم قد تسقط يده عن آخر رقم كتبه، ويغادر كل ما عدّه من غير أن يستطيع أن يحمل معه واحدةً من خزائنه.

إن عدّ المال في ذاته ضرورة من ضرورات التدبير، وقد أمرت الشريعة بحفظ الحقوق وكتابة الديون وإقامة العدل في المعاملات؛ فلا تدعو الآية إلى الفوضى المالية ولا إلى إهمال التخطيط، وإنما تكشف التعديد حين يتحول من وسيلة للعقل إلى عبادة للقلب. والفرق بينهما أن الإنسان المتوازن يعدّ ماله ليعرف واجبه، أما المستعبد له فيعدّه ليستخرج منه معنى الأمان؛ الأول يسأل: كم أؤدي؟ والثاني يسأل: كم أملك؟ الأول يرى في الحساب مسؤولية، والثاني يرى فيه هويةً وامتيازاً؛ الأول يستخدم الرقم، والثاني يعيش داخل الرقم.

وقد يجمع الإنسان مالا قليلاً ويكون من أهل هذه الآفة، وقد يملك مالا كثيراً ويسلم قلبه منها؛ لأن المسألة ليست مقداراً حسابياً، بل صلةً روحية. قد يستعبد الدرهم قلباً، وقد تعجز الملايين عن دخول قلب آخر. فالفقر لا يعصم وحده من عبادة المال؛ إذ قد لا يملكه الإنسان في يده، لكنه يعبد في خياله، ويقيس الناس به، ويتمنى أن يصل إليه لا ليقم به حقاً، بل ليمارس الاستعلاء نفسه الذي يكرهه من الأغنياء. ولهذا لا تعالج السورة طبقةً اقتصادية، بل تعالج إنساناً تشكّلت رؤيته للوجود حول الامتلاك والتعديد.

والمشكلة الكبرى أن عدّ المال لا يبقى محصوراً في الأوراق والأرصدة؛ بل يتسلّل إلى كل القيم، فيبدأ الإنسان بعدّ ما لا ينبغي أن يخضع للأرقام. يحصي صداقاته بما تنفعه، وعلاقاته بما تفتح له من أبواب، وكلماته بما تدرّ عليه من شهرة، ومواقفه بما تزيده من حضور. وربما عبد الأرقام حتى في الخير؛ فلا يرى أثر الكلمة إلا بعدد من صفقوا لها، ولا قيمة الكتاب إلا بعدد نسخه، ولا معنى العمل إلا بمقدار ما عاد عليه من الظهور. وهكذا تصبح الحياة سوقاً كبيرة، ويصبح الإنسان تاجراً حتى في مشاعره، ويغدو العطاء خسارة إن لم يُكافأ، والوفاء حماقة إن لم يحقق مصلحة.

والحضارة التي تجعل الرقم تعريفاً نهائياً للإنسان تهين بيئته واسعة للهمز واللمز؛ لأنها تمنح صاحب الرقم الأكبر شعوراً بأنه صاحب القيمة الأكبر. عدد المتابعين، وحجم الثروة، واتساع النفوذ، وكثرة الممتلكات، كلها قد تتحول من مؤشرات جزئية إلى أحكام على الوجود الإنساني نفسه. ومن لم يحرس قلبه بنور الوحي قد ينخي أمام صاحب الرقم، ولو كان خواءً من الفضيلة، ويحتقر صاحب القيمة، لأن قيمته لا يمكن تحويلها إلى رقم ظاهر.

غير أن أعظم ما في الإنسان لا يقبل العدّ: صدقه، ووفاءه، وخشيته، ونقاء سريره، وصبره حين لا يراه أحد، والكلمة التي كفّ بها أذىً عن إنسان، والدمعة التي أخفاها عن الخلق، والعفو الذي لم يعلن عنه، والرحمة التي مرّت في قلبه ولم تدخل حساباً أرضياً. هذه الأشياء قد تبدو صفراً في دفاتر السوق، لكنها عند الله أثقل من جبال الأموال. وهنا يعيد القرآن تحرير القيمة من قبضة الحساب البشري؛ فلا الأعلى هو الأكثر امتلاكاً، ولا الأدنى هو الأقل نصيباً، بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾.

لقد كان ينبغي للمال أن يجعل صاحبه أكثر شعوراً بالافتقار إلى الله؛ لأنه يعلم أن النعمة يمكن أن تزول، وأن بقاءها يحتاج إلى لطف الله في كل لحظة. لكن جامع المال المعدّد له قلب المعنى؛ فجعل النعمة دليل استغناء، والعطاء

الإلهي مجاباً عن المعطي، والسبب الصغير بديلاً عن رب الأسباب. وكلما زاد ماله لم يزد شكراً، بل ازداد اعتماداً عليه، حتى صار ينظر إلى خزائنه كما ينظر المؤمن إلى وعد ربه، ويستنصر بأرقامه على خوفه من المستقبل، ويرجو من المال ما لا يقدر المال أن يمنحه.

والمال قادر على شراء الدواء، لكنه عاجز عن كتابة الشفاء؛ قادر على بناء البيت، لكنه لا يضمن السكينة داخله؛ قادر على جمع الناس حول المائدة، لكنه لا يشتري محبة صادقة في قلوبهم؛ قادر على تأخير بعض صور المعاناة، لكنه لا يستطيع إلغاء الموت؛ وقادر على أن يرفع اسم صاحبه في مجالس الأرض، لكنه لا يملك أن يرفعه درجة واحدة في السماء. وحين يُطلب من المال ما يتجاوز حدوده يتحول من نعمة نافعة إلى إله كاذب، يعد صاحبه بالأمان ثم يتركه عند أول باب لا تفتحه المفاتيح.

ولأن جامع المال يعرف في أعماقه أن المال قابل للزوال، يزداد به تعلقاً كلما ازداد منه خوفاً. إن الشحيح لا يعيش مطمئناً بما جمع، بل قلقاً عليه؛ وكل خزينة جديدة تفتح في حياته باباً جديداً للحراسة، وكل ملكية توسّع دائرة مخاوفه، وكل زيادة تخلق احتمالاً جديداً للخسارة. كان يظن أن المال سيحرره من الخوف، فإذا هو يمنحه خوفاً بحجمه. الفقير قد يخاف ألا يجد،

أما المستعبد للمال فيخاف أن يفقد؛ وقد يكون خوف الفقد أشد من ألم
العدم، لأن صاحبه يظل يرى هاوية النقص أمامه ولو امتلك ما يكفي أعماراً
كثيرة.

ومن هنا نفهم لماذا يتحول بعض أصحاب المال إلى همزة لمزة؛ فالإنسان
المهدد في داخله يحتاج إلى صناعة صورة القوة في الخارج. يلزم الضعفاء ليقنع
نفسه بأنه قوي، ويغير الفقراء ليؤكد أن ما جمعه دليل استحقاق، ويتحدث
عن الناس بلغة الأرقام والمنازل حتى لا يواجه هشاشته المشتركة معهم.
لكنه مهما ارتفع بماله يظل محكوماً بالقانون نفسه: يمرض كما يمرضون، ويهرم
كما يهرمون، وتخور قواه، ويفاجئه الموت، ويحمل في ثوب لا جيوب فيه،
ويدخل حفرة لا تتسع لخزائنه.

وفي قوله: ﴿وَعَدَدُهُ﴾ مفارقة دامغة؛ فهو يعدّ المال، لكنه لا يعدّ الحقوق
المتعلقة به، ولا يعدّ القلوب التي كسرها في طريق جمعه، ولا الساعات التي
أهدرها بعيداً عن أهله، ولا المرات التي قدّم فيها صفقة على مبدأ، ولا
الكلمات التي أذلّ بها من لا يملك. يحصي الجانب الذي يزيد غروره، ويهمل
الجانب الذي يزيد مسؤوليته. ولو أنه عدّ حق الله وحق الفقير وحق العامل

وحق الأسرة وحق العمر كما عدّ الرصيد، لتحول الحساب من عبادةٍ للمال إلى
يقظةٍ أخلاقية.

إن القرآن لا يكره أن تكون اليد ممتلئة؛ ولكنه يريد للقلب أن يبقى حراً.
يريد للمال أن يمرّ عبر الإنسان ولا يستقرّ صمّاً فيه، وأن يكون طريقاً إلى
العمران لا جداراً بين الغني والناس، وأن يرى صاحبه نفسه خازناً مؤتمناً لا
مالكاً مطلقاً. فالمال مال الله قبل أن يكون مال الإنسان، والإنسان نفسه
مملوك لله، وما في يده عاريةٌ ستنتقل منه كما انتقلت إليه، وقد يصبح المال في
يد وارثه بعد موته شاهداً على أن أعوام القلق والحراسة لم تمنحه حق البقاء
لحظةً واحدة.

ولو أدرك جامع المال هذه الحقيقة لتغير معنى التعديد عنده؛ لكان كلما
عدّ ماله سأل: ماذا أبقىته منه عند الله؟ وكلما رأى زيادته خاف زيادة
الحساب، وكلما اتسعت قدرته اتسع شعوره بالمسؤولية، وكلما حمده الناس على
غناه تذكّر فقره المطلق إلى ربه. فالمال لا يصير نعمةً كاملةً بكثرة، بل بحسن
موقعه من القلب، وحسن حركته في الحياة، وحسن أثره بعد الموت.

والآية لا تواجهنا فقط بصورة الرجل الذي ينخي فوق خزائنه، بل تواجه
كل واحدٍ منا بما يجمعه ويعدّه. قد لا يكون ما نجمعه مالاً؛ قد يكون إعجاب

الناس، أو ألقاباً، أو انتصاراتٍ صغيرة، أو أخباراً عن عيوب الآخرين. قد يصبح لكل إنسان رصيده الخاص الذي يستخرج منه شعور التفوق. والسؤال القرآني الكامن هنا: ما الشيء الذي إذا كثر في يدك أو حولك ظننت أنك أكبر؟ وما الشيء الذي إذا نقص شعرت أن قيمتك قد نقصت؟ هناك يقيم صمك الخفي، ومن هناك قد تبدأ لمزتك لمن لم يُعطَ ما أُعطيت.

لكن السورة لم تصل بعد إلى أعمق طبقات المرض؛ فالجمع والتعديد ليسا إلا السلوك الظاهر، أما الفكرة التي تمنحهما قوتها فهي ما ستكشفه الآية التالية: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾. لقد تجاوز الأمر حبَّ المال إلى وهم الخلود؛ لم يعد المال وسيلةً للعيش، بل صار في وعي صاحبه وعداً خفياً بأن الموت بعيد، وأن قوته باقية، وأن عالمه لن ينتهي. وهنا يبلغ الانحراف ذروته: حين لا يكتفي الإنسان بأن يملك شيئاً من الدنيا، بل يطلب من ذلك الشيء الفاني أن يمنحه ما لا يملكه إلا الله: البقاء.

الفصل الثالث

حِينَ يَطْلُبُ الْفَائِي مِنَ الْفَائِي أَنْ يَمْنَحَهُ الْبَقَاءَ

قول الله تعالى:

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾

بهذه الآية القصيرة تبلغ السورة قلب المرض الذي بدأت بوصف أعراضه؛ فالهمز والهمز عَرَض، وجمع المال وتعدد سلوكه، أما الجذر العميق الذي يغذي ذلك كله فهو وهم الخلود: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾. إن صاحب السورة لم يعد يرى المال مَالاً، ولا النعمة نعمةً موقوتة، ولا الملكية عاريةً مستردّة؛ لقد منح المال في وعيه قدرةً ليست له، وطلب منه أن يؤدي وظيفة لا يقدر عليها شيء من مخلوقات الله: أن يحجزه عن الفناء، ويؤمّن له البقاء، ويصنع حول حياته سوراً لا يعبره الموت.

قال الله: ﴿يَحْسَبُ﴾، ولم يقل: يعلم؛ لأن ما يقوم في نفسه ليس معرفةً مؤسّسةً على برهان، بل ظنٌّ خادع صنعه طول الألفة بالمال. والحسبان قد

يلبس هيئة اليقين في سلوك صاحبه، مع أنه يظل في ميزان الحقيقة وهماً. إنه يعرف بلسانه أن الموت آتٍ، وقد شهد الجنائز، وودّع أناساً كانوا أكثر منه مالاً وأشد قوة، وربما وقف على قبور من تركوا وراءهم خزائن لا تُحصى؛ لكنه يعيش بقلبه وتصرفاته كأن الموت قانونٌ عام له استثناءٌ واحد: هو.

وهذه من أدق طرائق القرآن في كشف الإنسان؛ فالإنسان لا يُعرّف دائماً بما يصرّح به، بل بما يبني عليه حياته. قد يقول: أعلم أنني سأموت، ثم يخطط ويجمع ويظلم ويؤجل التوبة كأن أمامه دهرًا لا ينفد. وقد يقول: المال لا يدوم، ثم يجعل كل قراراته خاضعةً له، ويفرط في دينه وكرامته وعلاقاته من أجله. ما يقوله اللسان اعتقادٌ معلن، أما ما يصنعه السلوك فهو الاعتقاد الفعلي؛ وسورة الهمزة لا تتخذ بالشعارات التي يرددها الإنسان عن الفناء، بل تنظر إلى الطريقة التي يعيش بها، ثم تقول له: إنك تنصرف كما لو أن مالك قد أخذك.

ولم يقل: يحسب أن ماله سيخلده، بل قال: ﴿أَخْلَدَهُ﴾ بصيغة الماضي، كأن الخلود قد وقع وانتهى، وكأن المال قد أنجز مهمته ومنح صاحبه وثيقة البقاء. وفي هذا التعبير تصويرٌ لتمكّن الوهم من النفس؛ فصاحب المال لا ينتظر أن يخلّده ماله في المستقبل فحسب، بل يعيش منذ الآن بشعور من نال

الحصانة، ويتعامل مع الناس من مقام من يظن أنه ثابت وهم عابرون، وأن سلطانه باقٍ وهم زائلون، وأن ما بناه حول نفسه قد أخرجه من هشاشة الإنسان المشتركة.

لقد نسي أن المال نفسه فانٍ، وأنه يطلب البقاء من شيءٍ محكوم عليه بالزوال. يطلب الفاني من الفاني أن يمنحه الخلود، ويستند المهّدّ بالسقوط إلى مهّدٍ مثله، كمن يتعلق غريقٌ بغريقٍ ويظن أن اجتماعهما نجاة. فالمال لا يملك بقاءه حتى يمنحه لغيره؛ تُغيّر قيمته، وتنتقل ملكيته، وتحترق خزائنه، وتسقط أسواقه، وتنهار الدول التي سكّت نقوده، ويبقى الإنسان الذي جعله إلهًا خفيًا واقفًا أمام الموت أعزل من كل رقم.

وقد يبدو للمال سلطانٌ كبير في الحياة؛ فهو يشتري أسباب الراحة، ويوفرّ بعض سبل العلاج، ويفتح أبواباً كانت مغلقة، ويجعل صاحبه قادراً على دفع أنواع من الضرر، غير أن هذه القدرة المحدودة هي نفسها التي تصنع الوهم. فالإنسان حين يرى المال يفتح له أبواب الأرض قد ينسى أن في الوجود باباً لا يفتحه المال، وحين يراه يدفع عنه بعض المخاوف يظن أنه قادر على دفع الخوف الأخير، وحين يجد حوله أطباء وحراساً وخدمًا يتخيل أن الموت سيقف خارج صفوفهم مستأذناً. لكن الأسباب مهما بلغت لا تخرج عن

سلطان الله، وقد تطيل بإذن الله مرحلةً من العمر، إلا أنها لا تكتب الخلود، ولا تؤخر أجلاً إذا جاء.

إن المال يغيّر أحياناً طريقة حضور الموت في الوعي، لا حقيقة الموت نفسها. الفقير قد يراه قريباً لأن هشاشة الحياة ظاهرة أمامه كل يوم، أما الغني فقد تحجبه عنه طبقات الراحة والحماية، حتى يشعر أن الفناء يحدث بعيداً، في بيوت الآخرين، وبين الذين لا يملكون ما يملكه. لكنه حين يأتي لا يسأل عن عدد الحراس، ولا يقرأ قوائم الممتلكات، ولا يراعي المكانة الاجتماعية؛ يدخل القصور كما يدخل الأكواخ، ويقطع خطط الأغنياء كما يقطع أحلام الفقراء، ويساوي في لحظة واحدة بين أجسادٍ فرقت بينها أرقام الدنيا طويلاً.

وهنا تتجلى المفارقة: جمع المال لأنه خاف من الفناء، لكن جمعه على هذا النحو زاده غفلةً عنه؛ أراد أن يحمي نفسه من المستقبل، فحجبه التأمين الوهمي عن الاستعداد للمستقبل الحقيقي؛ خاف أن يترك أبناءه بلا أرصدة، ولم يخف أن يترك نفسه بلا عمل صالح؛ بنى لهم ما يسكنون بعده، ولم يبن لنفسه ما يسكن إليه بعد الموت. وكان كل رقم جديد يضيفه إلى حسابه يطرح من يقطته مقدراً، حتى أصبح المال الذي جمعه ليحمي حياته هو الحجاب الذي منعه من رؤية نهايتها.

إن الموت في الرؤية القرآنية ليس فكرةً سوداء تفسد على الإنسان حياته، بل حقيقةً محرّرة تعيد الأشياء إلى أحجامها. حين يذكر الإنسان موته لا يهجر الدنيا، وإنما يتوقف عن عبادتها؛ ولا يبطل العمل، بل يصحّح وجهته؛ ولا يحتقر المال، بل يضعه في موضعه. ذكر الموت لا يطفئ قيمة اللحظة، بل يضاعفها؛ لأن ما لا يتكرر يستحق أن يُعاش بصدق، وما سينقطع ينبغي أن يُستثمر فيما لا ينقطع. أما وهم الخلود فيُفسد الحاضر نفسه؛ إذ يجعل الإنسان يؤجل الخير، ويؤجل الاعتذار، ويؤجل التوبة، ويؤجل العودة إلى الله، حتى ينفد الأجل قبل أن تنفذ قائمة المؤجلات.

وصاحب المال في السورة لا يؤمن بالخلود بعبارة فلسفية معلنة، لكنه يمارسه في هيئة التأجيل. يقول في باطنه: سأصلح نفسي لاحقاً، وسأرد الحقوق حين تستقر تجارتي، وسأصل رحي بعد أن تخف مشاغي، وسأتوب إذا تقدّم بي العمر، وسأجعل للآخرة جزءاً من وقتي بعد أن أنتهي من بناء الدنيا. غير أن الدنيا لا تنتهي لمن جعلها غايته؛ فكلمها بلغ سقفاً ظهر له سقف أعلى، وكلمها جمع مقداراً نشأت في داخله حاجةٌ إلى مقدار أكبر، حتى يصل الموت وهو لا يزال في منتصف مشروع لم يكن له منتصف ولا نهاية.

إن عبارة ﴿مَالُهُ أَخْلَدَهُ﴾ تكشف علاقةً قلبيةً شديدة الخصوصية؛ فقد أضاف الله المال إليه: «ماله»، لأنه يشعر أنه امتداد ذاته، وأنه الشيء الذي يخصّه ويعبر عنه ويحمل اسمه. لكنه لا يشعر بالوضوح نفسه أنه عبد الله، وأن الله هو مالكه ومالك ماله. لقد اشتدت إضافة المال إليه حتى ضعفت إضافته هو إلى ربه؛ فتوهم أن ما يقال له «مالك» مملوك له ملكاً مطلقاً، ونسي أن يده نفسها التي تمسك به مملوكة، وأن قلبه الذي يتعلق به مملوك، وأن أنفاسه التي أنفقتها في جمعه تجري بأمر الله.

والمال لا يقول لصاحبه صراحةً: لن تموت؛ لكنه يهمس له بما هو أشد تأثيراً: ليس الآن. وهذه العبارة الخفية هي التي تهلك كثيراً من الناس؛ فالإنسان لا يحتاج إلى إنكار الموت كي يغفل عنه، يكفي أن يظنه مؤجلاً دائماً. كلما اقترب منه نداء التوبة قال: ما زال الوقت متسعاً، وكلما ذكره الشيب قال: ما زالت القوة حاضرة، وكلما رأى جنازةً قال: كان صاحبها مريضاً، أو أكبر سناً، أو مختلفاً عني. وهكذا يطرد دلائل فئائه واحدة بعد أخرى، لا بالبرهان، بل بالرغبة.

وقد يتحول وهم الخلود من الرغبة في بقاء الجسد إلى الرغبة في بقاء الاسم؛ فيطلب الإنسان من المال أن يخلّد ذكره حين يعجز عن تخليد حياته. يبنى ما

يحمل اسمه، ويجمع ما يتحدث الناس عنه، ويكثر من مظاهر القوة لئلا يُنسى، كأن بقاء الاسم على جدار يعيد الروح إلى صاحبه، أو كأن ترديد الناس لاسمه بعد موته يمنحه حياةً لا يشعر بها. وليس في الذكر الحسن ولا في الأثر النافع مذمة؛ بل قد يبقى للإنسان من علمه وصدقته وعمله الصالح ما يجري ثوابه بعد موته، وإنما المذموم أن يصنع من الذكر معبداً للذات، وأن ينفق المال لا لينفع الناس، بل ليستمر حضور صورته بينهم.

هناك فرق بين من يترك أثراً لأنه أحب الخير، ومن يصنع أثراً لأنه عجز عن قبول فئاته؛ الأول يريد للعمل أن يبقى ولو نُسي اسمه، والثاني يريد لاسمه أن يبقى ولو مات المعنى. الأول يفرح أن ينفع الله بعمله من لا يعرفه، والثاني يتألم إذا لم تُكتب صورته على كل منفعة. الأول يبعث ماله أمامه إلى الآخرة، والثاني يربط ماله خلفه في الدنيا، ثم يمضي وحده.

إن المال لا يخلد صاحبه، لكنه يستطيع - إذا آمن صاحبه بالآخرة - أن يتحول إلى عملٍ يجد ثوابه بعد الموت. وهذه هي المفارقة الإيمانية البديعة: فالذي أمسك المال لأنه أراد أن يبقى فقده وتركه، والذي أنفق الله لأنه أيقن أنه سيموت أبواه عند الله ووجده. ما يبقى في الخزائن ينتقل إلى الورثة،

وما يخرج في سبيل الحق ينتقل إلى صحيفة صاحبه. وكان بوسعه أن يجعل المال جسراً يعبر عليه إلى دار البقاء، لكنه جعله جداراً يحجبه عنها.

من هنا يتغير معنى الغنى كله؛ فالغني حقاً ليس من كثر ما أبقاه وراءه، بل من كثر ما قدمه أمامه. والفقير حقاً ليس من خرج من الدنيا قليل المال، بل من خرج منها كثير المال قليل الزاد. كم من إنسان مات ولم يترك بيتاً، لكنه ترك في قلوب الناس رحمةً، وفي ميزان الله صدقاً، وفي الأرض أثراً صالحاً، وكم من إنسان خلف عقارات وأرصدة، لكنه وصل إلى قبره خالي اليدين، لأن كل ما جمعه كان مكتوباً باسمه في الأرض ولم يكتب له منه شيء في السماء.

إن وهم الخلود هو الذي يفسر قسوة الهمزة الهمزة؛ فالذي يستحضر موته لا يسهل عليه أن يحتقر إنساناً سيمضي معه إلى المصير نفسه. من رأى نفسه واقفاً بين يدي الله رَقَّ لخلق الله، ومن تذكر أنه سيُجرّد من قوته لم يستخدم قوته في إذلال الضعفاء، ومن علم أن التراب سيغطي وجهه لم يسخر من وجه خلقه الله. أما الذي حسب أن ماله أخذه فقد ظن أن الفارق الدنيوي بينه وبين غيره حقيقةٌ أبدية، وأن علوه في السوق سيستمر علواً في الوجود، وأن من جلس اليوم تحت مجلسه سيظل تحته إلى الأبد.

لكن الموت يكشف أن الفوارق التي ملأت وعيه كانت مؤقتة؛ تُنزع الثياب التي حملت علامات الثراء، ويسقط القلب، وتقطع الصلاحيات، وتبقى النفس منفردةً بعملها. لا يستطيع الإنسان هناك أن يقول: كان عندي، لأن السؤال سيكون: ماذا قدّمت؟ ولا ينفعه أن يذكر ما جمع، بل يُسأل من أين جمع وفيه أنفق. إن المال الذي ظنه محامياً عن بقاءه يتحول شاهداً في محاكمته، والعدد الذي كان يبعث في نفسه الطمأنينة يصبح أبواباً من الحساب.

ولذلك فإن الإيمان بالموت لا يطلب من الإنسان أن يكره المال، بل أن ينقذه من الوهم. يعلمه أن يجعل المال خادماً لا سيّداً، ووسيلةً لا هوية، وأمانةً لا حصانة، وطريقاً إلى رضوان الله لا محاولةً يائسةً لإغلاق باب الفناء. يستطيع المؤمن أن يعمّر الأرض ويخطط للمستقبل ويوسع على أهله، لكن قلبه يظل معلقاً بمن يملك المستقبل، ويعرف أن التخطيط لا يعني ضمان الوصول، وأن اتخاذ الأسباب لا يعني تأليهها.

وتتجلّى خطورة ﴿يَحْسَبُ﴾ في أن الإنسان قد يقضي عمره كله داخل فكرة لم يختبر صدقها. يرى المال يتراكم فيستنتج أن حياته تزداد رسوخاً، مع أن حياته تنقص في اللحظة نفسها. كل زيادةٍ في المال تقابلها خسارةٌ من العمر؛

لكنه يرى الزيادة لأنها مكتوبة في الحساب، ولا يرى النقص لأنه يحدث في صمت. لو كان للعمر كشفٌ شهري كما للمال، ولو رأى الإنسان عدد أيامه ينخفض أمامه رقماً بعد رقم، لربما تغير معنى الثراء في عينيه. لكنه أخفي عنه الأجل ليعيش بين الخوف والرجاء، لا ليملاً فراغ الغيب بؤهم البقاء.

إنه يحسب أن ماله أخذه، لكن المال نفسه سيظل بعده شاهداً على موته. ستفتح خزائنه أيدٍ أخرى، وتسكن بيوته أجسادٌ أخرى، وتستخدم الأشياء التي أحباها نفوسٌ قد لا تعرف مقدار تعلقه بها. وربما تنازع الورثة على ما أفنى عمره في جمعه، فيصبح المال الذي جمعه ليحفظ تماسك عالمه سبباً في تفككه بعده. وينتهي كل ما قال عنه «مالي» إلى جملةٍ باردة في سجلات الميراث: كان له.

ما أشدها من كلمة: كان له. إنها تختصر وهم الملكية كله؛ كان البيت له، ثم صار لغيره؛ وكانت الأرض باسمه، ثم انتقل الاسم؛ وكان الحساب تحت تصرفه، ثم مُنعت يده عنه إلى الأبد. لم يتغير المال وحده، بل انكشف أن الإضافة القديمة كانت موقوتة، وأن الإنسان لم يكن مالاً إلا بمقدار الإذن والمدة. فلما انتهى الإذن عاد كل شيء إلى حركة الاستخلاف، وبقي المالك الحق سبحانه الذي يرث الأرض ومن عليها.

والقرآن حين يواجه الإنسان بفنائه لا يهينه، بل يرحمه من حياة زائفة. إنه يريد أن يحرر قلبه من مهمةٍ مستحيلة: أن يصنع لنفسه الخلود. هذه المهمة تستنزف الإنسان ولا تنجح؛ يبني ويحرس ويراكم ويشتهر، ثم يظل في أعماقه عارفاً بأن صدعاً واحداً لا يسده شيء. أما الإيمان فيمنحه الجواب الذي يبحث عنه في المكان الخطأ: الخلود ليس في المال، بل في الدار التي خلقها الله للبقاء؛ والأمان ليس أن تمنع الموت، بل أن تلقى الله بقلب سليم؛ والنجاة ليست أن تحمل الدنيا معك، بل أن تحوّل ما في يدك منها إلى زادٍ يسبقك.

وحين يستقر هذا المعنى في القلب تبدّل علاقة الإنسان بالناس؛ فلا يهمز فقيراً لأن فقره لا ينقص كرامته، ولا يلزم ضعيفاً لأن الضعف طورٌ يمر بالجميع، ولا يتزلف إلى غني لأن غناه لا يضمن له غداً، ولا يتكبر بما عنده لأن كل ما عنده قابلٌ لأن يصبح في لحظةٍ ماضياً. يرى الناس جميعاً عابرين إلى الله، مختلفين في الأرزاق، متساوين في الافتقار، متفاضلين بالتقوى؛ فيرقّ لسانه، ويعدل حكمه، وتراجع حاجته إلى تحطيم الآخرين.

إن الآيات الثلاث الأولى بنت صورةً كاملةً للغفلة: لسانٌ ينال من كرامة الناس، ويدٌ تجمع المال، وعقلٌ يحسب الأرقام، وقلبٌ يتوهم الخلود. اجتمعت الجوارح كلها في خدمة الوهم؛ اللسان يحمي التفوق بالسخرية، واليد

تحميه بالجمع، والعقل يحميه بالتعدد، والقلب يمنحه غطاءً من الأمان الكاذب. ولم يبق إلا أن تأتي الحقيقة من خارج هذا البناء كله، فتضربه بكلمة واحدة لا تترك للوهم منفذاً.

وهنا تهبط ﴿كَلَّا﴾.

كلمة واحدة، لكنها تهدم ما جمعه الإنسان في عمر. كلاً: لم يخلده ماله. كلاً: ليست كرامة الناس مباحةً له. كلاً: لن يبقى في مجلسه يلز العابرين. كلاً: ليست الخزائن حصوناً أمام الله. كلاً: إن الطريق الذي ظنه صعوداً إلى الخلود ليس إلا انحداراً إلى الحطمة.

وبعد أن كان هو الذي ينبذ الناس من دوائر الاحترام بكلماته وإشاراته، سيأتي الحكم الإلهي المزلزل: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ﴾. هناك تنقلب المواقع، ويسقط وهم الحصانة، ويصبح الذي جعل الناس مادةً لاحتقاره شيئاً منبوذاً، ويكتشف - ولكن بعد انقضاء زمن العمل - أن المال لم يمنحه الخلود، وإنما أطال غفلته حتى قادتة إلى مصيره.

الفصل الرابع

حِينَ يَنْقَلِبُ النَّابِذُ مَبْذُورًا

قول الله تعالى:

﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾

تأتي ﴿كَلاَّ﴾ في قلب السورة كضربة تقطع جبل الوهم الذي ظلّ صاحب المال ينسجه حول نفسه؛ كلمة واحدة، قصيرة في مبنائها، لكنها تحمل قوة الهدم كلها. كان يحسب أن ماله أخذه، فجاءه الرد قبل أن يتأدى في حسابه: كلاً. ليس الأمر كما توهمت، ولا المال كما عظمت، ولا حياتك كما قدّرت، ولا منزلتك كما صوّرت لك نفسك. كلاً: لن يصنع المال حولك حصانةً من الموت، ولن يتحول الرقم إلى عمر، ولن تفتح الخزائن باباً في جدار الأجل، ولن يستطيع ما جمعته من حطام الدنيا أن يمنع عنك «الحطمة».

إنها كلمة ردع وزجر، لكنها - ما دامت تُتلى في الدنيا - كلمة إنقاذ أيضاً؛ لأن الله لا يكشف للإنسان كذب وهمه ليهلكه، بل ليفتح له طريق الرجوع

قبل أن يتحول الوعيد خبراً واقعاً لا يُدفع. كل ﴿كَلَّا﴾ يسمعها القلب وهو حيّ فرصة لأن يعيد ترتيب حياته، وأن ينزع عن المال صفات لم يمنحها الله له، وأن يردّ إلى الناس كرامتهم، وأن يوقف لسانه قبل أن يوقفه الموت. إنها قاسية على الوهم، رحيمة بالإنسان؛ تهدم السور الكاذب كي لا يستيقظ صاحبه خلف السور الحقيقي للنار.

لقد كان بناء الغفلة متماسكاً في ظاهره: همزٌ ولمزٌ، وجمعٌ وتعددٌ، وحسبانٌ بالخلود؛ فجاءت ﴿كَلَّا﴾ لا لتناقش البناء لبنةً لبنة، بل لتسقط أساسه كله. فالحق لا يحتاج دائماً إلى مرافعة طويلة أمام الوهم؛ أحياناً تكفي كلمة من الله لتعيد الأشياء إلى أحجامها: الإنسان عبد، والمال عارية، والعمر أجل، والموت حق، والجزاء آتٍ. وما سوى ذلك زخارف أقامت النفس حول خوفها ثم صدّقتها.

وفي مجيء ﴿كَلَّا﴾ بعد ﴿يَحْسَبُ﴾ مواجهة بين الظن البشري والعلم الإلهي؛ هو يحسب، والله يحكم. هو يبني مستقبه على تقديرات نفسه، والله يخبره بنهايته إن استمر على حاله. هو يرى المال أمامه، ولا يرى المصير خلفه؛ أما الله فيعلم ما بين يديه وما خلفه، ويكشف له أن الطريق الذي يظنه صعوداً إلى الحصانة ينتهي إلى النبذ في الحطمة. وما أضعف حساب الإنسان حين

يقف أمام خبر الله، وما أصغر خططه حين تصطدم بالقدر الذي لم يدخله في حسابه.

ثم يأتي الوعيد مثقلاً بالتوكيد: ﴿لِيُنَبِّذَنَّ﴾. اجتمعت اللام ونون التوكيد الثقيلة لتسلبا الوهم آخر منفذ للفرار؛ فالأمر ليس احتمالاً قد يقع، ولا صورةً وعظية يُراد بها التخويف المجرد، بل وعيدٌ محقق لمن مات مصرّاً على هذه الصفات من غير توبة. كان يقول في نفسه: ربما يستمر ما أنا فيه، وربما يحميني مالي، وربما تستطيع قوتي أن تفتح لي مخرجاً؛ فجاء التركيب القرآني مغلقاً أبواب «ربما» كلها: ﴿لِيُنَبِّذَنَّ﴾.

والنبد في أصل دلالة طرح الشيء وإلقاؤه مع الاستهانة وعدم الاعتداد به؛ لا يُوضع برفق، ولا يُستقبل بتكريم، ولا يلتفت إلى ما كان يحيط به من ألقاب ومظاهر، بل يُطرح طرحاً. وهنا تبلغ المفارقة ذروة قوتها: ذلك الذي قضى عمره ينبذ الناس معنوياً، ويطردهم من دائرة الكرامة بلمزة أو همزة، ويعاملهم كأنهم أشياء لا حرمة لها، يصبح هو نفسه منبوذاً. لم يترك للناس مكاناً آمناً من لسانه، فلا يجد لنفسه مكاناً آمناً من الجزاء؛ أخرجهم من مجالس الاحترام، فإذا الحكم الإلهي يخرجهم من كل ما كان يتوهمه مقاماً وحصانة.

لقد كان الهمزة الهمزة يلقي بعيوب الناس في المجالس كما يلقي الشيء الذي لا قيمة له، ويطرح أسماءهم أمام الضحك العام، ويجردهم من حرمتهم ليصبحوا مادةً للتداول؛ فجاء الفعل ﴿لِيُنْبَذَنَّ﴾ ليعيد إليه معنى ما صنع. فالجزاء هنا لا يقف بعيداً عن الجريمة، بل يحمل صورتها مقلوبةً على صاحبها: من نبذ كرامات الخلق نبذ، ومن حطم قلوبهم انتهى إلى الحطمة، ومن أغلق على قلبه أبواب الرحمة أغلقت عليه النار، ومن مدّ لسانه في الناس انتهى في عمدٍ ممددة.

وليست هذه المماثلة لعباً لفظياً، بل كشفٌ لوحدة النظام الأخلاقي في الوجود. إن الأعمال لا تضيع بعد وقوعها، بل تسير نحو أصحابها في صورة الجزاء؛ وما يرسله الإنسان إلى العالم يعود إليه، لا بالضرورة في التوقيت الذي يريده، ولا بالصورة التي يتوقعها، ولكن في ميزانٍ لا يظلم. قد ينسى كلمةً أذلت إنساناً، غير أن الكلمة لا تخرج من علم الله؛ وقد يضحك مجلسٌ كامل ثم ينفض، لكن أثر الضحك يبقى في صحيفة القائل والسامع والمشارك. فإذا جاء يوم الحقيقة التقت الأفعال بأصحابها، وعرف كل امرئ أن ما ظنه قد مضى كان يسير نحوه.

واللافت أن الفعل جاء مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله: ﴿لِيُنْبَذَنَّ﴾؛ فيتركز المشهد على عجز المنبوذ وهوانه، لا على مقاومته ولا على قدرته على دفع ما يقع به. في الدنيا كان فاعلاً متصدرًا، يهمز ويلزم ويجمع ويعدّ ويحسب؛ أفعال متلاحقة تُشعره بأنه مركز الحركة وصاحب القرار. ثم فجأةً يتحول في الآية إلى نائب فاعل يقع عليه الحدث، فلا يجمع ولا يعدّ ولا يختار، بل يُنبذ. كانت أفعاله تصدر منه، فأصبح الفعل يقع عليه؛ وكان يحرك ألسنة المجالس، فإذا به لا يملك أن يغيّر اتجاه إلقاءه.

إن الانتقال من ﴿جَمَعَ﴾ إلى ﴿لِيُنْبَذَنَّ﴾ شديد الإيحاء؛ فقد قضى حياته يجمع الأشياء حوله، ثم انتهى مطروحاً بعيداً عنها. جمع المال قطعةً قطعة، وحساباً بعد حساب، وعقاراً بعد عقار، كأنه يشدّ وجوده إلى الأرض بحبال الملكية؛ فلما جاء الأمر انقطعت الحبال كلها في لحظة، وبقي هو منفرداً أمام المصير. كان يجمع كيلاً يتفرق عالمه، فإذا الموت يفرّق بينه وبين كل ما جمع، وكان يظن أن كثرة ما حوله تمنحه الثقل، فإذا به يُنبذ كما يُنبذ الشيء الذي لا وزن له.

وهنا تسقط أكبر أكاذيب الملكية: أن كثرة ما حول الإنسان تعني أن له مقاماً ثابتاً في الوجود. فالمال قد يجمع حول صاحبه الحرس والخدم والمتزلفين

والمنتفعين، لكن هؤلاء لا يستطيعون الوقوف بينه وبين الله. قد يجعل الناس يتسابقون إلى مجلسه في الدنيا، لكنه لا يصنع له مجلس كرامة في الآخرة؛ وقد يمنح صوته قوة في السوق والسياسة والمجتمع، لكنه لا يمنحه كلمة واحدة بعد صدور الحكم. هناك لا يتحدث الرصيد، ولا يشفع اللقب، ولا تفيد شبكة العلاقات، ولا يبقى من الإنسان إلا حقيقة قلبه وعمله.

ولم يقل: يموتن، أو ليتركن ماله، مع أن ذلك يهدم وهم الخلود، بل نقل المشهد مباشرة إلى ما بعد الموت: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾. لأن مشكلة هذا الإنسان لم تكن أنه نسي الموت فحسب، بل أنه نسي ما بعده. ربما كان يستطيع أن يعترف بأن جسده سيفنى، ثم يظن أن النهاية عدمٌ لا حساب بعده؛ فجاء القرآن لا ليذكّره بالفناء وحده، بل ليضعه أمام المصير. الموت ليس الباب الأخير، وإنما الباب الذي تسقط عنده الأوهام وتبدأ بعده الحقائق التي لا يملك المال تعديلها.

وجاء حرف الجر ﴿فِي﴾ ليصوّر الإحاطة؛ لم يقل: إلى الحطمة، كأن الأمر ينتهي بمجرد الوصول، بل في الحطمة، داخلها، محاطاً بها، واقعاً في سلطانها. لقد أمضى حياته في ماله، بمعنى أن وعيه كان غارقاً فيه، وهمّه محاطاً به، وتقديره للأشياء صادراً عنه؛ فإذا الجزاء ينقله من إحاطة المال الوهمية إلى

إحاطة النار الحقيقية. كان المال عالمه الذي اختاره، فصارت الحطمة محيطه الذي لا يختاره ولا يستطيع مغادرته.

أما ﴿الْحُطْمَةُ﴾ فهي اسمٌ من أسماء النار، مشتق من الحطم الذي يدل على الكسر والتحطيم. واللفظة بذاتها تحمل صوتاً ومعنى شديدين؛ ليست ناراً تمسّ ثم تتصرف، بل قوةٌ تحطّم ما يلقي فيها. وفي اختيار هذا الاسم تناسبٌ عميق مع بنية السورة؛ فالإنسان الذي حطّم كرامات الناس، وحاول تحطيم صورهم في المجالس، وعاش بقلب حطّمه المال حتى لم يعد يرى حقاً ولا رحمة، يصير إلى النار المحطّمة.

ومع ذلك، ينبغي أن يبقى المعنى على حقيقته التي أخبر الله بها؛ فالحطمة نار الآخرة، وليست مجرد رمزٍ للعذاب النفسي أو صورةٍ أدبية للندم. نعم، تكشف اللفظة عن تحطّم الأوهام، وانكسار الكبر، وسقوط صورة الذات التي بناها صاحبها؛ لكن هذه المعاني التدرجية لا تلغي حقيقة النار، بل تنطلق منها. فالوحي لا يهدد الإنسان بمجازٍ ذهني، وإنما يخبره بمصير واقعي، ثم يفتح له من خلال هذا الخبر باباً لفهم عدالة الجزاء وعمق الصلة بين العمل والمآل.

إن الحطمة تحطّم أول ما تحطّم وهم الإنسان عن نفسه. كان يرى ذاته كبيرةً لأن ماله كثير، فإذا المال غائب وهو حاضر وحده في موضع الهوان؛

وكان يرى الناس صغاراً، فإذا الذين لمزهم قد يكونون عند الله أرفع منه؛ وكان يظن أن مجلسه مركز العالم، فإذا العالم كله يمضي من غيره؛ وكان يتصرف كأن الزمن خادمٌ لمشروعاته، فإذا الزمن يسلمه إلى المصير الذي حاول ألا يفكر فيه. قبل أن تمس النار جسده تكون الحقيقة قد حطمت الرواية الكاذبة التي عاش بها.

وتحطم الحطمة وهم المال أيضاً؛ فالمال في الدنيا يبدو قوةً متماسكةً قادرةً على تغيير الأشياء، لكن قرب النار ينكشف عجزه المطلق. لا يستطيع أن يخفف حرارةً، ولا أن يفتح باباً، ولا أن يشتري لحظة راحة، ولا أن يفدي صاحبه. ولو افتدى يومئذٍ بملء الأرض ذهباً ما قبل منه. ما كان يُباع في الدنيا ويُشترى انتهى، وبدأت دارٌ لا تعمل فيها قوانين السوق؛ فلا مساومة، ولا رشوة، ولا صفقة، ولا فرصةٌ لزيادة الرصيد.

إن هذا المشهد يعيد تعريف الهوان؛ فقد يكون المنبوذ في الدنيا مكرماً عند الله، وقد يكون المكرم في المجالس منبوزاً في الآخرة. كم من ضعيفٍ لم يجد من يدافع عنه حين وقع عليه الهمز واللمز، لكنه كان في حفظ الله وعلمه؛ وكم من قويٍّ ضحك لمزته لها الجماهير، فتوهم أن تصفيقهم براءة، بينما كان

الوعيد يكتب عليه. ميزان السماء لا يتشكل بعدد المصنفين، ولا تتحول الإساءة إلى حق لأن جمهوراً واسعاً استحسناها.

وفي هذا عزاءٌ لكل من نُبذ ظلماً بين الناس؛ فبذ البشر لا يحدد مقامه عند الله. قد تطرده جماعة لأنه لم يشاركها باطلها، وقد يسخر منه الناس لفقره أو شكله أو عجزه، وقد يُحاصر بهمة أو إشاعة، لكن ذلك كله لا ينزع عنه كرامةً أثبتها الله له. الخطر الحقيقي ليس أن ينبذك الناس من مجالسهم، بل أن تنبذك خطاياك من رحمة الله؛ وليست النجاة أن يقبلك كل أحد، بل أن تلقى الله وهو راضٍ عنك.

وفي المقابل، ليست الآية إذناً للمظلوم أن يشمت في مصير شخص بعينه، أو أن يوزع أحكام النار على الناس؛ فالوعيد الإلهي تحذيرٌ للقلوب، والحساب لله وحده، وباب التوبة مفتوح ما دامت الحياة. قد يصبح الهمزة اللمزة عبداً منكسراً بين يدي الله إذا صدق في توبته، وردّ المظالم، وطهر لسانه وقلبه. إننا نقرأ الوعيد للنجوى، لا لنتخذ منه حجارةً نرجم بها خصومنا، ونقرأ وصف الجريمة لنفتش عن آثارها في نفوسنا، لا لنكتفي بتعيين مرتكبيها خارجنا.

إن ﴿كَلَّا﴾ تحتاج أن تدخل كل قلب قبل أن يدخل الحطمة. كلا حين يقول الكبير: أنت أفضل من الناس. كلا حين يهمس المال: أنا أمانك. كلا

حين يدعو المجلس إلى نهش غائب. كلا حين توهمك الشهرة أن كثرة
الضاحكين تجعل الهمزة مباحة. كلا حين تقول النفس: سأَتوب غداً. إن كلمة
الردع التي يضعها الإنسان بينه وبين المعصية اليوم قد تكون الباب الذي ينجيه
من الإيصاد غداً.

وما أشد حاجة الإنسان إلى أن يتعلم «النبد» الصحيح قبل أن يُنبذ: أن
ينبذ الكبير من قلبه، والهمز من لسانه، والشح من يده، ووهم الخلود من
وعيه؛ وأن يلقي خارج روحه كل ما يمكن أن يلقيه يوماً في الحطمة. فالتوبة
عملية تحطيمٍ رحيمة للأصنام الداخلية؛ يحطم الإنسان صورته المتضخمة بنفسه
قبل أن تحطمها الحقيقة، ويكسر تعلقه بالمال قبل أن يكسره الفراق، ويهدم
غروره في الدنيا كي يُبنى له مقام الصدق في الآخرة.

وكلما أنفق المرء مالاً في حق، فقد نبذ شيئاً من عبودية المال؛ وكلما ستر
عيباً، فقد نبذ من نفسه نزعة الهمز؛ وكلما اعتذر لمن آذاه، فقد كسر جزءاً
من الكبير؛ وكلما ذكر الموت، فقد أحدث صدعاً في جدار وهم الخلود. هكذا
تفتح السورة طريق النجاة من خلال الجريمة نفسها؛ فلا يواجه الإنسان
الحطمة بالخوف المجرد فقط، بل بتحطيم أسبابها في قلبه ما دام يملك زمناً
للعمل.

لقد انتهى صاحب السورة في هذه الآية من مجلس السخرية إلى موضع النبذ، ومن الخزائن الحصنة إلى الحطمة، ومن فاعلٍ متكبرٍ إلى مفعولٍ به لا يملك دفعًا. لكن لفظة «الْحُطْمَةُ» تظل تحمل من الهول ما يجعل العقل يسأل: ما هذه الحطمة؟ وما حقيقتها؟ وما الذي يجعل اسمها وحده كافياً لهدم كل ما بناه الإنسان؟

وهنا لا تترك السورة السؤال يمر عابراً، بل ترفعه إلى مقام التهويل والتفخيم:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾.

كأن ما يعرفه الإنسان عن النار لا يكفي ليدرك هذه الحقيقة، وكأن اللغة التي نطق بها اسم «الحطمة» فتحت باباً على هولٍ لا يحيط به الخيال. ومن هنا يبدأ الفصل التالي: حين يقف العقل عند حدود الغيب، فلا يجد سبيلاً إلى المعرفة إلا أن يخبره الله.

الفصل الخامس

حِينَ يَقِفُ الْخَيَالُ وَيَتَوَلَّى الْوَحْيُ تَعْرِيفَ الْهَوْلِ

قول الله تعالى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿

حين قالت السورة: ﴿لِيُنْبِذَنَّ فِي الْخُطْمَةِ﴾، أُلْقَتْ فِي النَّفْسِ اسْمًا ثَقِيلًا لَا يَمُرُّ عَلَى السَّمْعِ كَمَا تَمُرُّ الْكَلِمَاتُ الْمَأْلُوفَةُ؛ اسْمًا يَحْمِلُ فِي حُرُوفِهِ صَوْتَ الْكُسْرِ، وَفِي مَعْنَاهُ صُورَةُ التَّحْطِيطِ، وَفِي مَوْقِعِهِ رَهْبَةٌ الْمَصِيرِ. وَمَا إِنْ يَسْمَعُ الْقَلْبُ «الْخُطْمَةَ» حَتَّى يَنْدَفِعَ الْخَيَالُ مُحَاوَلًا أَنْ يَصْنَعَ لَهَا صُورَةً، وَأَنْ يَقَيِّسَهَا بِمَا عَرَفَهُ مِنْ نَارِ الدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا؛ لَكِنَّ السُّورَةَ تَوَقَّفَ هَذَا الْخَيَالُ بِسُؤَالٍ لَا يَنْتَظِرُ مِنْهُ جَوَابًا، بَلْ يَكْشِفُ لَهُ عَجْزَهُ عَنِ الْجَوَابِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾.

إِنَّهُ سُؤَالُ التَّهْوِيلِ الَّذِي لَا يَطْلُبُ مَعْلُومَةً مِنَ الْمُخَاطَبِ، بَلْ يَخْبِرُهُ أَنَّ حَقِيقَةَ الْمَسْئُولِ عَنْهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَبْلُغَهَا إِدْرَاكُهُ بِنَفْسِهِ. مَا الَّذِي أَدْرَاكَ بِالْخُطْمَةِ؟ أَيُّ تَجْرِبَةٍ بَشَرِيَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَمْنَحَكَ عِلْمًا بِهَا؟ وَأَيُّ نَارٍ رَأَيْتَهَا تَصْلُحُ أَنْ

تكون مقياساً لنار الآخرة؟ وأي خيال يستطيع أن يعبر حدود الغيب من غير أن يقوده الوحي؟ إن الإنسان يعرف الاحتراق، ويعرف الألم، ويرى النار تلتهم الأشياء؛ لكنه لا يعرف من أمر الحطمة إلا ما أخبره الله، لأن الغيب لا يُكتشف بالحواس، ولا يُصنع بالتصور، ولا يملك العقل أن يتجاوزه إلا على الجسر الذي يقيمه الخبر الإلهي.

وفي التعبير ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يُقَاطُ للنفس من وهم آخر يشبه وهم صاحب المال؛ فقد كان صاحب المال يظن أنه يعلم مستقبله لأنه يملك أسبابه، والإنسان قد يظن أنه يدرك حقائق الآخرة لأنه سمع أسماءها طويلاً. لكن اعتياد الاسم لا يعني إدراك المسمى، وتكرار الحديث عن النار لا يجعل حقيقتها مألوفاً أو محاطة. إن بعض الكلمات الدينية تمرّ على الأسماع حتى تضعف رهبتها من شدة التكرار، فتأتي صيغة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ لتعيد المسافة بين علم الإنسان المحدود والحقيقة الغيبية الهائلة.

نقول: الحطمة، وقد نرددها في تلاوتنا، وربما تنتقل منها سريعاً إلى الآية التالية؛ لكن السؤال القرآني يمسك بالقلب عندها ويقول له: تمهّل، إنك لا تعرف حقيقة ما نطقته به. هذه ليست كلمةً في كتاب وحسب، بل مصيرٌ ممكن للإنسان؛ وليست صورةً أدبية يراد بها تزيين الوعظ، بل عالمٌ من الجزاء

خلقه الله وأخبر عنه. إن سهولة النطق لا تعني سهولة الحقيقة؛ فقد يستطيع اللسان أن يقول «الموت» في لحظة، بينما تعجز النفس عن الإحاطة بمعنى أن ينقطع كل ما ألفتَه، ويستطيع أن يقول «الآخرة» في حرفين، بينما تمتد الآخرة وراء حدود الزمن الذي يعرفه.

وهذه الصيغة القرآنية تربّي العقل على أدب المعرفة؛ فليس كل ما ثبت وجوده أحاط العقل بكيفيته، وليس عجز الخيال عن تصوير الغيب حجةً على نفيه. العقل يهتدي إلى صدق الوحي، فإذا صدق الخبر وقف عند حدّه، وآمن بما أخبر الله من غير تمثيلٍ لحقيقة الغيب بما في الدنيا، ومن غير تعطيلٍ للنص لأنه تجاوز التجربة. فالآخرة ليست نسخةً مكبرةً من عالمنا، وإن اشتركت بعض أسمائها مع ما نعرف؛ الأسماء تقرب أصل المعنى، أما الكيفية والحقيقة الكاملة فعلها عند الله.

وفي قوله: ﴿مَا الْخُطْمَةُ﴾ إعادة للاسم بعد ذكره، وكان يمكن في ظاهر الكلام أن يقال: وما أدراك ما هي؛ لكن إعادة الاسم تثبتته في السمع، وتضاعف وقعه، وتجعل «الخطمة» تحضر مرتين: مرةً بوصفها موضع النبذ، ومرةً بوصفها حقيقةً تستحق أن يسأل الوحي عنها. الاسم نفسه جزءٌ من

التهويل؛ لأنه لا يصف ناراً ساكنة، بل ناراً تفعل فعل التحطيم، كأن الحركة قائمة في بنيته قبل أن يأتي تفسيرها.

ثم يتولى الله الجواب، ولا يترك العقل يتخبط في التخمين:

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾.

جوابٌ قصير، لكنه ينقل الخوف من حدود الاسم إلى جلال الإضافة؛ ليست الحطمة ناراً مجهولة المصدر أو حادثاً عشوائياً في الوجود، بل نار الله. وإضافتها إلى الله إضافة ملكٍ وخلقٍ وتدير، تفيد التعظيم والتهويل؛ فهي نارٌ خلقها الله وأعدّها وجعلها دار جزاء لمن استحقها. وليست - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - جزءاً من ذاته سبحانه، ولا في الإضافة ما يوهم حلولاً أو اتحاداً؛ فالله ليس كمثل شيء، والنار مخلوقةٌ من مخلوقاته، واقعةٌ تحت ملكه وقهره، لا تتجاوز أمره ولا تعمل مستقلةً عنه.

لكن لماذا أضيفت النار إلى اسم الله في هذا الموضع؟ لأن صاحب المال عاش تحت تأثير إضافةٍ أخرى: ﴿مَالُهُ﴾. نسب المال إلى نفسه، واتكأ على هذه النسبة، واشتق منها شعوره بالقوة والبقاء؛ فجاءته ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ لتكشف له الفارق بين ملكه الموقوت وملك الله المطلق. كان يقول بقلبه: مالي، فكأن

السورة تقول له: وهذه نار الله. وما قيمة مالك أمام ما يملكه الله؟ وما قدرة الشيء الذي جمعته أمام أمر خالقه؟ لقد عظمت الإضافة الأولى في وعيه حتى حجبته عن الإضافة الكبرى؛ فلما جاء الجزاء سقط «ماله» وبقيت «نار الله».

كان المال في الدنيا ناراً خفيةً في قلبه، لا بمعنى أن المال شرٌّ في ذاته، بل لأن شهوته أوقدت الجشع والكبر والاحتقار؛ أما في الآخرة فلا يعود الأمر معنى خفياً أو عذاباً نفسياً، بل ناراً حقيقيةً مخلوقةً موقدة. وما استتر في الدنيا من فساد الصلة بالمال يظهر هناك في صورة الجزاء. لقد أوقد في المجالس نار الفتنة بالكلمات، وأشعل في قلوب الناس ألم الإهانة، وربما هدم بلهرته علاقاتٍ وسمعةً وحياة؛ فكان المصير إلى النار الموقدة.

إن إضافة النار إلى الله تسلب الإنسان قدرة التهوين منها؛ فنيّران الدنيا قد يطفئها الماء، أو تُقاوم بالحواجز، أو يُهرب منها إلى مكانٍ آمن، وهي مهما عظمت محدودةٌ بما أودع الله فيها من خصائص. أما نار الآخرة فقد جعلها الله على طبيعةٍ تليق بعالم الجزاء، فلا يجوز أن تُقاس على ما ألقناه، ولا أن يظن صاحب المال أن أسباب الدنيا تعمل فيها كما تعمل هنا. الذي خلق النار والماء

هو الذي يحدد خصائص خلقه، وليس للعادة التي عرفها الإنسان في الأرض سلطانٌ على الدار الآخرة.

وإذا كانت النار نار الله، فإنها لا تتحرك بطيش انتقامٍ بشري، ولا تتجاوز عدل الله؛ فالله سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، ولا يعذب أحداً بغير حق، ولا يضيع توبة تائب، ولا يساوي بين مصرٍّ ومنيب. وهذه الحقيقة لا تخفف من هول الوعيد، لكنها تطهر فهمنا له؛ فنحن لا نقرأ عن نارٍ فوضوية، بل عن جزاءٍ تحت حكم العدل المطلق. إن الإنسان قد يظلم حين يغضب، ويزيد العقوبة على الجريمة، ويتشفى من عدوه؛ أما الله فحكمه حق، وعلمه محيطٌ بالظاهر والباطن، ورحمته سبقت غضبه، وقد أقام الحجة وفتح باب التوبة وأرسل الرسل وأنزل الآيات.

ولهذا فإن الحديث عن النار لا ينبغي أن يوقظ في المؤمن لذة التشفي، بل خوفاً على نفسه ورحمةً بالخلق. من قرأ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ثم انشغل بتعيين الآخرين لها ولم يفتش عن أسبابها في قلبه، فقد حوّل الآية عن وظيفتها التربوية. النار ليست مادةً للخصومات، ولا سلاحاً يرفعه الإنسان في وجه كل من خالفه، ولا حكماً يملكه أحد على مصير شخص بعينه؛ إنها وعيد الله الذي

يدفعنا إلى التوبة، وإلى إنقاذ أنفسنا، وإلى دعوة الناس بالصدق والرحمة قبل أن ينقضي زمن الرجوع.

وجاء وصف النار بقوله: ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ ليصورها معدةً مشتعلةً، ليست جمرَةً خامدةً ينتظر اشتعالها، ولا خطراً بعيداً غير مهيأ. إنها موقدةٌ بأمر الله، قائمةٌ بوظيفتها التي خلقها لها، لا ينطفئ هولها لأن الناس غفلوا عنها، ولا تبرد لأن الهمزة الهازية استبعد وجودها. إن الحقائق لا تحتاج إلى إيمان الإنسان كي توجد؛ فالموت لا يتوقف حتى يقتنع به الغافل، والآخرة لا تؤجل قيامها حتى يستكمل المكذب أسئلته، والنار لا تتخذ لأن من يسير نحوها منشغلٌ بجمع ماله.

وفي وصفها بـ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ مقابلةٌ خفيةً مع الغفلة الباردة التي عاشها صاحبها؛ كان قلبه بارداً تجاه آلام من يلزمهم، لا تتحرك فيه رحمة، ولا يقلقه جرح صنعه، ولا يؤلمه أن يبيت إنسانٌ منكسراً بسبب كلمةٍ قالها؛ فإذا المصير إلى نارٍ موقدة لا برودة فيها ولا فتور. وكأن السورة تكشف أن القسوة ليست نجاةً من الألم، بل تأجيلٌ له؛ فمن عطّل حسّه الأخلاقي في الدنيا لا يكون قد أبطل ميزان الجزاء، وإنما دفع الألم إلى موعدٍ أعظم.

إن الكلمة المؤذية قد تكون في فم صاحبها باردةً عابرة، لكنها تقع في قلب الضحية ناراً. كم من همزةٍ أشعلت في إنسان حياءً مَرَضِياً من خلقته، وكم من

لمزةٍ أوقدت خصومةً بين أسرة، وكم من سخريةٍ دفعت ضعيفاً إلى العزلة، وكم من إشاعةٍ أحرقت تاريخاً من السمعة الطيبة. قد لا يرى الفاعل شيئاً من ذلك؛ لأنه غادر المجلس ضاحكاً، لكن الله يرى مسار النار التي أشعلها في القلوب، ويعلم مقدار ما أفسدت.

ولعل هذا يكشف بعض الحكمة في شدة الوعيد على جريمةٍ يظنها الناس «كلاماً». فاللغة ليست هواءً خالياً من المسؤولية، والكلمة ليست عدماً لأنها لا تُمسك باليد. الإنسان يبني وجوده الاجتماعي في جانبٍ كبير منه بالثقة والسمعة والكرامة؛ فإذا جاء الهمزة الهمزة وحطّم هذه المعاني، فقد اعتدى على شيءٍ عظيم. ربما استطاع المظلوم أن يعيد ماله سُرَق منه، لكنه قد يعجز عن جمع اسمه بعد أن مزقته الألسنة، وقد يبقى أثر الإهانة في نفسه بعد اعتذار صاحبها بسنوات.

والسورة لا تفصل بين جريمة اللسان وجريمة المال؛ لأن المال قد يمنح اللسان منبراً أوسع وسلطةً أشد. الضعيف إذا لمز ربما آذى فرداً أو مجلساً، أما صاحب الثروة والنفوذ فيستطيع أن يحوّل لمزته إلى حكم اجتماعي، وأن يجعل الناس يكررون سخريته طلباً لرضاه، وأن يسقط إنساناً من موقعه لأن كلمته

مسموعة. كلما اتسعت القوة اتسعت المسؤولية، وكلما بلغ الصوت عدداً أكبر
تضاعف الحساب على ما حمله هذا الصوت من عدل أو ظلم.

كان يستطيع بماله أن يطفى نيران الحاجة، لكنه أوقد به نار الكبر؛ وكان
يستطيع بنفوذه أن يحفظ كرامات الضعفاء، لكنه جعله غطاءً للهمز واللبز؛
وكان يستطيع أن يبني حياةً، لكنه بنى حول نفسه وهماً. لهذا لم تكن المشكلة
في الشيء الذي مُنح، بل في الوجهة التي دفعه إليها. النعمة الواحدة قد تكون
سلباً إلى رضوان الله أو طريقاً إلى الحطمة، وما يحدد المصير هو القلب الذي
تلقاها والعمل الذي وجهها.

إن ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ تعيد الخوف إلى مركزه الصحيح؛ فقد كان صاحب المال
يخاف الفقر أكثر مما يخاف الله، ويخشى خسارة الأرقام أكثر مما يخشى
خسارة قلبه، ويرتعد من تقلب السوق ولا يرتعد من تقلب صحيفة أعماله. وربما
احتمل إهانة إنسان كي لا يخسر صفقة، وقطع رحماً كي يحفظ نصيباً،
وسكت عن حق كي تبقى مصالحه؛ فجاءته الآية لتقول: ليست أعظم
الأخطار أن تفقد مالك، بل أن تلقى نار الله بما صنعت.

كم يحتاج الإنسان إلى إعادة ترتيب مخاوفه! نحن نخاف أمراض الجسد،
ولا نخاف دائماً أمراض القلب؛ نخاف النار التي تحرق منزلاً، وقد لا نخاف

كلمةٌ تحرق أخوة؛ نخاف افتضاح عيونا، ولا نخاف أن نفتضح عند الله لأننا كشفنا عيب غيرنا؛ نخاف أن تنقص أموالنا، ولا نخاف أن تنقص حسناتنا وهي تنتقل إلى من ظلمناهم. سورة الهمة لا تلغي مخاوف الدنيا، لكنها تضع فوقها الخوف الذي يمنحها حجمها الحقيقي.

ومع ذلك، فليست الغاية أن يعيش المؤمن مذعوراً بلا رجاء؛ فالذي أخبر عن النار هو الرحمن الرحيم، والذي حذّر من الحطمة هو الذي فتح أبواب التوبة، والذي قال ﴿كَلَّا﴾ لم يغلق بعدها الطريق في الدنيا. إن الخوف الذي يريده القرآن ليس خوفاً يشلّ الإرادة، بل خوفٌ يطلقها نحو الإصلاح؛ يردّ الكلمة قبل خروجها، ويحرر المال من قبضة الشح، ويحمل الإنسان على رد المظالم، ويجعله يطلب عفو من آذاهم ما دام يستطيع الوصول إليهم.

إذا هبّت في القلب رغبة اللز، فذكر ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ماءً يطفئها؛ وإذا اشتعل الجشع، فذكر الحطمة يرد المال إلى مرتبته؛ وإذا توهمت النفس أنها أعلى من إنسان، فذكر النبذ يعيدها إلى تواضع العبودية. ليس المقصود أن تنكر صورة النار على اللسان من غير أثر، بل أن تتحول إلى قوة أخلاقية تمنع الإنسان من إشعال النيران الصغيرة في حياة الآخرين.

وفي المقابل، فإن كل كلمة طيبة إطفاءً لنار، وكل سترٍ لعيبٍ إطفاءً لنار، وكل مالٍ يُنفق في تفرّيج كربة إطفاءً لنار، وكل تنازل عن رغبة التشفي إطفاءً لنار. الإنسان لا يستطيع أن يطفى نار الآخرة إذا وصل إليها، لكنه يستطيع في الدنيا أن يطفى أسبابها، وهذه هي فسحة الرحمة الكبرى: أن الجزاء لم يقع بعد، وأن الصحيفة ما زالت تُكتب، وأن القلب الذي قسا يمكن أن يلين، واللسان الذي آذى يمكن أن يذكر الله ويعتذر ويصلح.

إن السؤال ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ لا يريد من الخيال أن يرسم تفاصيل لم يخبر بها الوحي؛ فالتعامل الصادق مع الغيب يقوم على الإثبات والانضباط معاً: ثبت ما أثبتته الله على حقيقته، ولا نزيد من عند أنفسنا صوراً وقصصاً لا دليل عليها. فالقرآن لم يحتاج إلى المبالغة البشرية؛ كفت كلماته القليلة لتقيم في القلب من الهيبة ما تعجز عنه الأوصاف المتكلفة: حطمة، نار الله، موقدة. وكل كلمة منها أوسع من أن يحيط بها خيال.

إننا كثيراً ما نغطي ضعف التأثير بكثرة التفاصيل؛ فإذا لم يتحرك القلب أمام النص الصريح رحنا نطلب صوراً أغرب وحكايات أشد، مع أن المشكلة ليست في قلة البيان، بل في بعد القلب. الذي يحتاجه قارئ السورة ليس أن يعرف تفاصيل لم يُكلّف بمعرفتها، وإنما أن يسمح للكلمات التي اختارها الله أن

تبلغ موضعها فيه. أن يسمع ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ فيتذكر عظمة من عصى، وأن يسمع ﴿الْمَوْقَدَةُ﴾ فيدرك أن الغفلة لا تطفى الحقيقة، وأن يسمع ﴿الْحُطْمَةُ﴾ فيسأل نفسه عما يحطّمه في الناس اليوم.

وبين نار الدنيا ونار الآخرة فارقٌ في الوظيفة كذلك؛ فنار الدنيا قد تكون أداة دفءٍ ونفع، وقد تكون عذاباً ودماراً بحسب موقعها واستخدامها، أما النار المذكورة هنا فقد عُرِّفت بوظيفتها في الجزاء: الحطمة الموقدة. إنها لا تقع خطأً، ولا تصيب من لم يستحقها ظلماً، ولا تخرج عن سلطان العدل. ولهذا فالعرب الذي تبعته لا ينفصل عن الثقة بعدل الله؛ المؤمن يخاف ذنبه، لكنه لا يسيء الظن بربه، ويهرب من الله إليه، ويعلم أن النجاة ليست في إنكار الحساب، بل في صدق العودة إلى من يحاسب.

وفي السورة تدرّجٌ مهيب في تقريب المصير: بدأت بكلمة عامة هي ﴿وَيْلٌ﴾، ثم سمّت موضع العذاب ﴿الْحُطْمَةُ﴾، ثم أوقفت القلب أمام جهله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، ثم عرّفتها: ﴿نَارُ اللَّهِ﴾، ثم وصفت حالها: ﴿الْمَوْقَدَةُ﴾. في كل خطوة يقترب المشهد أكثر، حتى لا يبقى الوعيد غيمةً بعيدة في آخر السورة، بل يصير حقيقةً واقفةً أمام الضمير.

غير أن الجواب لم يكتمل بعد؛ فقول الله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ يخبر عن ماهية الحطمة، ثم تأتي الآية التالية لتخبر عن موضع نفوذها في الإنسان: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾. وهناك تبلغ السورة أعمق نقطة في بنائها كله؛ فالنار لا تقف عند الجلد الذي ظهر للناس، بل تصل إلى القلب الذي اختفى عنهم. تصل إلى المنبع الذي وُلد فيه الكبر قبل أن يصير لمزة، وتعلّق بالمال قبل أن يصير جمعاً وتعديداً، وتكوّن فيه وهم الخلود قبل أن يتحول إلى سلوك.

إنها نارٌ لا تعالج السطح، لأن الجريمة لم تبدأ من السطح؛ بدأت من الفؤاد، وستبلغ الفؤاد. ومن هنا يبدأ فصل السرائر: حين يصل الجزء إلى المكان الذي لم يره أحد، لكن الله رآه منذ البداية.

الفصل السادس

حِينَ يَصِلُ الْجَزَاءُ إِلَى مَوْطِنِ الْجَرِيمَةِ

قول الله تعالى:

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾

لا تقف السورة في تعريف الحطمة عند قول الله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾، بل تمضي خطوةً أشد رهبة، فتخبر عن مدى نفوذ هذه النار وموضع بلوغها: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾. إنها لا تحطم ظاهر الإنسان فحسب، ولا تقف عند الحدود التي تقف عندها نيران الدنيا، بل تبلغ الأفئدة؛ تصل إلى أعمق موضع في الكيان الإنساني، إلى الموطن الذي استقرت فيه العقائد والمقاصد والشهوات والأحقاد، ومنه خرج الهمز والهمز، وفيه عظم المال، وداخله نشأ وهم الخلود.

إن لفظ ﴿تَطَّلِعُ﴾ يحمل معنى البلوغ والعلو والنفاذ؛ فالنار تصل إلى الأفئدة وتغشاها، ولا يحجز بينها وبينها حاجز. وهذا هو الهول الذي لا يستطيع

العقل أن يحيط بكيفيته؛ فنحن نؤمن بما أخبر الله على حقيقته، ونعلم أن عذاب الآخرة يجري على أحوالٍ خلقها الله لتلك الدار، فلا يُقاس قياساً كاملاً على ما نعرفه من قوانين أجساد الدنيا. وإذا كانت النار في عالمنا متى بلغت مقتل الإنسان انقضت حياته وانقطع إحساسه، فإن عذاب الآخرة ليس موتاً يريح صاحبه من الألم، بل حياة جزاء لا يملك الإنسان فيها أن يفرّ من إحساسه أو ينهي وجوده.

ولم تقل الآية: التي تطلع على الأجساد، مع أن الجسد معذبٌ بالنار، وإنما خصّت الأفئدة بالذكر؛ لأنّ الفؤاد مركز الحقيقة الأخلاقية في الإنسان، والموضع الذي تبدأ منه الجريمة قبل أن تتحول إلى فعلٍ ظاهر. فاللسان لا يهمز وحده، والعين لا تلهز وحدها، واليد لا تجمع وحدها؛ إن وراء الجوارح قلباً يأمر ويوجّه، ويمنح الفعل معناه، ويصنع له الغاية. قد تتحرك الشفاه بحروفٍ معدودة، لكن القلب هو الذي أعدّ الاحتقار قبل أن ينطقه اللسان، وقد تشير العين إشارةً سريعة، لكن الفؤاد هو الذي حمل الإشارة سمّها.

هكذا تعيد الآية الجريمة إلى منبعها؛ فقد بدأت السورة من الخارج: ﴿هُمَزَةٌ لَمَزَةٌ﴾، ثم كشفت السلوك المادي: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾، ثم دخلت إلى التصوّر الباطن: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾، وها هي في مشهد الجزاء تسير في

الاتجاه نفسه حتى تصل إلى الفؤاد. وكأن السورة تقول: إن عدالة الله لا تعاقب حركة اللسان معزولةً عن باطنها، بل تكشف البناء القلبي الذي أنتجها؛ فالعمل شجرة، والقلب جذورها، والحطمة لا تقف عند الأغصان التي ظهرت للناس، بل تبلغ الجذر الذي اختفى عنهم.

والناس لا يرون من الجريمة إلا سطحها. يسمعون الهمزة، ويرون الابتسامة الساخرة، ويحصون الكلمات المؤذية؛ أما الله فيعلم ما وراءها: يعلم مقدار الكبر الذي حرّكها، والحسد الذي لونها، والرغبة في إسقاط الآخر، والفرح الخفي بألمه. قد يعتذر صاحبها بأنها مزحة، لكن الله يعلم هل خرجت من قلب بريء أخطأ التعبير، أم من قلب كان يتلذذ بالإهانة ثم ستر لذته باسم المزاح. وقد يتظاهر بالنصيحة، لكن الله يعلم هل أراد الإصلاح، أم استخدم عنوان الإصلاح ليحصل على حق التشهير.

وهنا يظهر الفارق بين ميزان البشر وميزان الله؛ فالبشر يحكمون بالظاهر لأنهم لا يملكون غيره، ولا يجوز لهم أن يدّعوا علم السرائر، أما الله فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قد ينبجح الهمزة الهمزة في بناء صورة محترمة عن نفسه، ويتقن اختيار العبارات التي لا توقعه تحت حكم صريح، ويلهز من وراء التورية والإشارات، فيعجز الناس عن إثبات عدوانه؛ لكن الآية تسقط

أمامه كل مهارةٍ في التخفي، لأن النار ستبلغ الموضع الذي حفظ القصد كاملاً.

لقد كان الفؤاد في الدنيا مخزن الأسرار، فأصبح في الآخرة موضع انكشاف الجزاء. استطاع الإنسان أن يخفي عن الناس أن ماله ملاً قلبه، وأن يقدم شحاً في صورة حزم، وكبره في صورة ثقة، ولمزه في صورة صراحة، وحرصه المرضي في صورة تخطيط؛ لكنه لم يخفَ على الله. إن تغيير أسماء الأمراض لا يغير حقائقها، والقدرة على تحسين القبح في أعين الناس لا تجعله حسناً في ميزان الله.

وفي اختيار ﴿الْأَفْتِدَةِ﴾ تذكير بأن الإنسان لا يصلح أخلاقه من الخارج وحده. قد يدرّب لسانه على الصمت في حضور الناس، ويبقى قلبه ممتلئاً باحتقارهم؛ وقد يمتنع عن اللز لأنه يخشى سقوط صورته الاجتماعية، لا لأنه يعظم حرمة الإنسان؛ وقد ينفق شيئاً من ماله ليمدح بالسخاء، بينما يظل المال إلهاً خفياً في فؤاده. هذا كله إصلاحٌ للصورة لا للجوهر، وضبطٌ للسلوك لا تطهيرٌ للمنع، والقرآن يريد أبعد من السلوك المهذب: يريد قلباً لا يجد لذته في الأذى، ولا يرى نفسه أعلى من عباد الله.

فليس كمال التوبة من الهمز أن تمنع لسانك من النطق بما في قلبك فقط، بل أن تُخرج من قلبك المعنى الذي لو أُطلق له اللسان لنطق. وليس التحرر من عبادة المال أن تنفق وأنت تبكي على كل درهم، بل أن تعرف في أعماقك أن المال لله، وأن ما تبذله لم يخرج من ملكك إلى ملك الله، بل انتقل من يدك الموقوتة إلى أجرك الباقي. وليس الإيمان بالموت أن تردد أن كل نفس ذائقة الموت، بل أن تتغير على ضوء هذه الحقيقة أولوياتك ومواقفك وعلاقاتك.

إن الأخلاق القرآنية لا تُبنى على الحراسة الدائمة للجوارح فحسب، بل على إعادة بناء القلب حتى تصدر عنه الجوارح مستقيمةً بطبيعتها الجديدة. القلب الذي امتلأ بتعظيم الله يصعب عليه أن يحتقر خلقه، والقلب الذي عرف فقره لا يتكبر على فقير، والقلب الذي أيقن بالحساب لا يتسلى بأعراض الناس، والقلب الذي ذاق حلاوة الرحمة لا يجد في السخرية لذة. أما إذا بقيت الجذور فاسدةً، فإن الآفة ستبحث عن طريقٍ آخر للخروج ولو أغلق عليها طريق اللسان.

وقد يصمت الإنسان عن اللمز، لكن وجهه يلمز، أو يلمز بقلمه، أو باختياره لما ينشر، أو بتجاهله المتعمد، أو بإعادة كلمة غيره ثم يقول: أنا لم أقولها.

إن القلب إذا أراد الإيذاء سخر له أدوات كثيرة، ولذلك لم تقف السورة عند الأداة، بل انتهت إلى الفؤاد. هناك تُحسم المعركة الأخلاقية، وهناك يكون النصر الحقيقي أو الهزيمة الحقيقية؛ فالجوارح جنود، والفؤاد هو الذي يحدد الراية التي تسير تحتها.

وفي الفؤاد ولد وهم التفاضل بالمال. قبل أن يقول اللسان للفقير كلمة احتقار، كان القلب قد أصدر حكمه بأن المال يرفع الإنسان، وأن فقده يخفضه. وقبل أن يجمع صاحب السورة ماله ويعدّده، كان الفؤاد قد صدّق أن الأمان يُشترى، وأن البقاء يمكن أن يُصنع من الأرقام. وهكذا ليست الآية السابعة انتقالاً إلى موضوع جديد، بل كشفٌ نهائي لمرکز الموضوع كله: القلب الذي وضع المال في غير مرتبته، فوضع الناس في غير مراتبهم، ووضع نفسه في مقام لم يخلقه الله لها.

إن القلب حين يفسد ميزانه لا يظلم الآخرين فقط، بل يظلم صاحبه أيضاً؛ لأنه يربط طمأنينته بما يتغير، وقيّمته بما ينقص ويزيد، ومستقبله بما لا يملك المستقبل. يظل يطلب من المال وعداً لا يستطيع المال الوفاء به، ثم يغضب من العالم كلها شعر أن الوعد يتصدع. وربما كان الهمز والهمز دفاعاً عن هذا الوهم؛ فكل إنسان صالح فقير يهدد فكرته عن أن المال معيار القيمة، وكل غني

متواضع يفضح كذبة أن الغنى يقتضي الاستعلاء، ولذلك يحتاج إلى السخرية منهما معاً كي يحجي نظامه الداخلي.

والحسد من أخفى النيران التي تشتعل في القواد. يرى الهمزة اللزمة نعمةً عند غيره فلا يستطيع أن يكتفي بمتي مثلها، بل يضيق بوجودها، ثم يبحث عن لمزة توازن في نفسه تفوق الآخر. إن كان الرجل كريماً قال: يرأي، وإن كان عالماً قال: يتكبر بعلمه، وإن كان محبوباً قال: خدع الناس، وإن كان ناجحاً فتش في ماضيه عن عثرة. لا يهدف إلى معرفة الحقيقة، بل إلى إطفاء النور الذي أزعج عينيه؛ وكل فضيلة لا يستطيع بلوغها يحاول إسقاطها من صاحبها.

وهكذا يصبح اللز أحياناً اعترافاً مقلوباً بفضل الملموز؛ فلو لم يشعر اللامر بأن في الآخر شيئاً يهدد صورته لما احتاج إلى طعنه. لكنه بدل أن يجعل فضيلة غيره دعوةً إلى إصلاح نفسه، يجعلها مناسبةً لتشويهه غيره. وهذا من أشد ما يفسد القواد: أن تتحول النعمة التي كان ينبغي أن تدلك على فضل الله إلى وقودٍ للحسد، وأن تتحول رؤية الخير إلى ألم، وأن يصبح سقوط الناس أريج لقلبك من صعودك أنت.

إن ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ ترسم عدالةً تصل إلى هذه الطبقات التي لم يعرفها الناس. قد يتساوى فعلاان في الظاهر ويختلفان عند الله باختلاف

القلب؛ كلمة قاسية خرجت من غاضب ثم ندم وانكسر ليست كلمة صاغها صاحبها طويلاً ليستمتع بتحطيم إنسان، وعطاء قليل خرج من قلب صادق قد يكون أثقل من مالٍ كثير أُعطي طلباً للصيت. والله لا تشبه عليه الدوافع، ولا يخدعه إتيان الأدوار، ولا تضيع عنده ذرة من خير أو شر.

لكن هذه الحقيقة لا تمنحنا الحق في تفتيش أفئدة الناس؛ فالآية تثبت علم الله ووصول جزائه، ولا تجعلنا قضاة على السرائر. نحن مأمورون بالحكم بالظاهر والعدل فيه، وبأن نكل ما خفي إلى الله. ومن أخطر صور الهمز أن يدعي الإنسان علم النيات، فيقول: إنما فعل ليقال، وإنما أنفق ليُرى، وإنما تكلم طلباً للظهور؛ كأنه فتح نافذة على قلب أخيه لا يملكها. وقد يكون المتحدث عن الرياء أشد رياءً ممن يتهمه، لكن الفرق أن الأول ستره الله والثاني نصب نفسه كاشفاً للسرائر.

إن من قرأ الآية بحق خاف على فؤاده أكثر مما اشتغل بأفئدة الناس. سأل نفسه: لماذا فرحت حين سمعت عثرة فلان؟ لماذا ضاق صدري حين أثني عليه؟ لماذا ارتاح إذا ذكر من هو أقل مني مالاً، وأتوتر أمام من هو أكثر؟ لماذا أرى أخطاء من أخالفه مكبرة، وأرى أخطاء من أحبه صغيرة؟ لماذا أختار من الأخبار ما يهدم صورة خصمي وأعرض عما ينصفه؟ هذه

الأسئلة ليست جلدًا للنفس، بل فتحٌ لنوافذها حتى يدخل النور إلى المواضع التي اعتادت الاختباء.

إن الفؤاد قد يحمل همزاً لم يخرج بعد، ومالاً لم يُجمع بعد، ووهماً لم يتحول إلى سلوك بعد؛ ومن رحمة الله أن يحاسب الإنسان نفسه على البذور قبل أن تصير أشجاراً. كل خاطر سوء ليس ذنباً مؤاخذاً عليه ما لم يستقر ويعمل به، لكن مراقبة الخواطر تحمي القلب من أن تتحول إلى إرادة وعادة. يبدأ الفساد خاطراً، ثم يُستضاف، ثم يُستحسن، ثم يُقال، ثم يُكرر، ثم يصير صاحبه همزةً لمزة.

وإصلاح الفؤاد يحتاج إلى أكثر من قرار عابر؛ يحتاج إلى صحة طويلة مع القرآن، وإلى ذكر الموت، وإلى إنفاقٍ يقطع عروق الشح، وإلى دعاءٍ صادق لمن يجد الإنسان في نفسه حسداً له، وإلى إجبار النفس على ذكر محاسن من تميل إلى لمزه، وإلى انسحابٍ شجاع من المجالس التي تتغذى على الأعراض. إن القلب لا يتطهر بالتبني، بل بالمجاهدة؛ وكل مرة يمنع فيها الإنسان نفسه من كلمة مؤذية يضع حجراً في بناء قلبٍ جديد.

ومن أعظم العلاج أن يتذكر الإنسان عيوبه التي سترها الله. من رأى مقدار الستر الذي يعيش فيه استحياءً أن يمزق ستر غيره، ومن علم أن الناس لو

اطَّلَعُوا عَلَى كُلِّ مَا فِي قَلْبِهِ لَمَّا بَقِيَتْ صُورَتُهُ كَمَا يَحِبُّ، رَقَّ لِمَنْ انْكَشَفَ مِنْهُ خَطَأٌ. لَيْسَ مَعْنَى هَذَا التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ أَوْ السَّكُوتِ عَنِ الضَّرَرِ، بَلْ أَنْ يَكُونَ بَيَانُ الْخَطَأِ مُصْحُوبًا بِتَوَاضُعٍ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ عَبْدٌ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَغْفِرَةِ، لَا بِصَوْتٍ مَنْ يَتَحَدَّثُ كَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ طَهَارَةٍ خَالِصَةٍ.

وَيُصْلِحُ الْفُؤَادَ كَذَلِكَ أَنْ يَدْرِكَ أَنَّ كِرَامَةَ الْإِنْسَانِ لَمْ يَمْنَحْهَا لَهُ الْمَالُ حَتَّى يَسْلُبَهَا الْفَقْرُ، وَلَمْ يَمْنَحْهَا الْجَمَالَ حَتَّى يَسْلُبَهَا الْقُبْحُ، وَلَمْ يَمْنَحْهَا النِّجَاحَ حَتَّى تَسْلُبَهَا الْعَثْرَةُ؛ إِنَّهَا كِرَامَةٌ أَصْلِيَّةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ. حِينَ يَسْتَقِرُّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يَعُودُ الضَّعِيفُ مَادَّةً سَهْلَةً لِلتَّسْخِيرَةِ، وَلَا يَصْبِحُ اخْتِلَافُ الشَّكْلِ أَوْ اللَّغَةِ أَوْ النَّسَبِ ذَرِيعَةً لِلْاِحْتِقَارِ. يَرَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ سِرَّ الْخَالِقِ وَالتَّكْلِيفِ وَالْمَصِيرِ، فَيَعَامِلُ مَا لَا يَعْجِبُهُ مِنْهُ بِعَدَلٍ، وَيَحْفَظُ لَهُ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ مِنْ حَرَمَةٍ.

وَمَا يَطْهَرُ الْفُؤَادُ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْإِنْسَانُ الْفَرْحَ بِخَيْرِ الْآخَرِينَ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي يَفْرَحُ بِالنَّعْمِ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى غَيْرِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى لَمْزِهِمْ. وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ مِنَ الْحَرِيَةِ: أَنْ تَرَى نَجَاحَ أَخِيكَ فَلَا تَشْعُرُ أَنَّهُ سَرَقَ مِنْكَ، وَأَنْ يُمدِّحَ غَيْرُكَ فَلَا تَحْسُ أَنْ الْمَدْحَ إِهَانَةٌ لَكَ، وَأَنْ يَمْلِكَ النَّاسُ مَا لَا تَمْلِكُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُضَيِّقَ بِهِمْ. خَزَائِنُ اللَّهِ لَا تَنْفَدُ، وَفَضْلُ اللَّهِ عَلَى غَيْرِكَ لَيْسَ إِعْلَانًا عَنْ حَرَمَانِكَ؛ لَكِنْ الْقَلْبُ الْمَحْبُوسُ دَاخِلَ الْمَقَارَنَةِ يَرَى كُلَّ ارْتِفَاعٍ لآخر انْخِفَاضًا لَهُ.

إن الهمة الهمة يعيش أسير المقارنة، ولذلك لا يستريح مهما جمع. ينظر دائماً إلى من فوقه ليحس بالنقص، ثم إلى من تحته ليعوّض نقصه بالاحتقار؛ فلا يهنأ بما عنده، ولا يسلم منه من حوله. ولو تحرر قلبه من ميزان المقارنة لعرف أن لكل إنسان امتحانه ورزقه وطريقه، وأن السؤال الذي ينتظره ليس: لماذا لم تكن أكثر من فلان؟ بل: ماذا فعلت بما أعطاك الله؟

وتأتي النار إلى الأفئدة لأن الأفئدة كانت موضع الإصرار. أما القلب الذي أخطأ ثم ارتجف وندم واستغفر وردّ الحق، فباب الرحمة مفتوح له، والله أرحم بعبده من أن يساوي بينه وبين من جعل الأذى هويته ومات عليه. لا ينبغي أن تدفعنا الآية إلى اليأس من أمراضنا الباطنة، بل إلى الصدق في علاجها؛ فالذي كشف الداء أنزل له الدواء، والذي حذر من النار دعا إلى المغفرة، والذي يعلم ما في الفؤاد يعلم أيضاً مقدار مجاهدته وانكساره ورغبته في التطهر.

وقد يكون أشد ما في عذاب الفؤاد أنه موضع الإدراك والشعور؛ فالألم لا يمرّ على هامش الوجود، بل يبلغ مركزه. إن الإنسان يستطيع في الدنيا أن يهرب من كثير من آلامه بالتشاغل، أو يخدّر ضميره بالضحك، أو يملأ فراغه بعد المال، أو يحيط نفسه بمن يصفقون له؛ لكن حين تطلع النار على الفؤاد لا

يبقى موضعٌ يهرب إليه من نفسه. كان يفر من الحقيقة إلى الخارج، فإذا
الخارج والداخل كلاهما قد صار موضع جزاء.

لقد عاش صاحب السورة مشتتاً عن فؤاده؛ كان مشغولاً بأفواه الناس
وعيوبهم، وبالمال وعدده، وبالصورة التي يحتلها في المجالس، ولم يجلس مع قلبه
ليسأله: ماذا صرت؟ قد يكون جمع أشياء كثيرة وفقد نفسه بينها، وعرف
حساب ماله ولم يعرف حساب دوافعه، وحفظ أسماء من يلزمهم ولم يحفظ
فؤاده من الهلاك. فلما جاءت الحطمة تجاوزت كل ما انشغل به، وبلغت
الشيء الذي أهمله: فؤاده.

وما تزال الآية - قبل وقوع المصير - دعوةً إلى عودة الإنسان إلى داخله.
أن ينزل من ضجيج العالم إلى قلبه، ويرى ما الذي يحكمه حقاً: أهو الله أم
المال؟ أهى الرحمة أم المقارنة؟ أهو طلب الحق أم لذة الانتصار؟ أن يراجع
منطلقاته قبل أن يراجع عباراته، وأن يطهر قصده قبل أن يحسن صورته. فالله
لا يريد فقط لساناً لا يلزم، بل فؤاداً لا يحب اللزم، ولا يريد يداً تعطي خفسب،
بل قلباً لا يستعبد لها ما تمسك به.

إن النجاة تبدأ من الفؤاد كما بدأت الجريمة منه؛ فإذا صلح الفؤاد لم يعد
المال سبباً للكبر، بل باباً للشكر، ولم يعد اختلاف الناس مادةً للسخرية، بل

ميداناً للعدل، ولم يعد الموت فكرةً مطرودة، بل بوصلةً للحياة. يتحول المال من وعدٍ بالخلود إلى زادٍ للدار الخالدة، ويتحول اللسان من أداة تحطيم إلى وسيلة جبر، وتحول العين من لمز العيوب إلى رؤية النعم ومواطن الرحمة.

وبعد أن بلغت الحطمة الأفئدة، قد يتوهم الخيال أن المعذب يستطيع الابتعاد عنها، أو أن يجد منفذاً يهرب منه، أو أن تخفت النار فيخرج من مجالها؛ لكن السورة تنتقل من وصف النفاذ إلى وصف الإغلاق:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ﴾.

إنها مطبقة مغلقة، لا باب مفتوحاً، ولا هواء يأتي من الخارج، ولا مسافة بين المعذب والنار. كان صاحبها يظن أن المال يفتح كل باب، فإذا هو أمام بابٍ أغلقه الحكم الإلهي، واستنفدت كل مفاتيح الأرض قدرتها. كان يعيش مشغولاً بفتح خزائنه وإغلاقها، فإذا به هو الذي يُغلق عليه؛ وكان يفتح عيوب الناس للناظرين، فإذا النار مؤصدةً عليه.

ومن هنا يبدأ الفصل التالي: حين يتحول الوجود الذي ظنه واسعاً بماله إلى حصارٍ لا منفذ منه، وحين يصبح الإغلاق آخر حقيقة يواجهها من أغلق قلبه طويلاً عن الله وعن عباده.

الفصل السابع

الْأَبْوَابُ الَّتِي لَا يَفْتَحُهَا الْمَالُ

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾

تبلغ السورة في آياتها الأخيرتين تمام المشهد الذي بدأ بكلمة ﴿وَيْلٌ﴾؛ فلم يعد الوعيد كلمةً مجملة، ولا الحطمة اسماً مهيأً فحسب، ولا النار حقيقةً موقدةً تصل إلى الأفئدة وحسب، بل صار العذاب إحاطةً كاملة، وصار المكان مغلقاً، وصار الإغلاق موثقاً لا يترك للرجاء الكاذب منفذاً: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾.

تبدأ الآية بحرف التوكيد: ﴿إِنَّهَا﴾؛ لأن النفس التي قضت حياتها تصنع لنفسها الخارج قد تحاول أن تصنع في الخيال مخرجاً أخيراً من الحطمة. ربما تخبو، وربما يفتح باب، وربما يستطيع المال أن يؤدي وظيفته القديمة، وربما تنفع الحيلة التي نجحت في الدنيا؛ فتأتي ﴿إِنَّهَا﴾ لتثبت الحقيقة وتغلق باب

التوهم قبل أن تصف إغلاق النار: إنها - لا شك ولا احتمال ولا مهرب من الخبر - عليهم مؤصدة.

ويعود الضمير إلى نار الله الموقدة، لكنها لم تعد في هذه الآية شيئاً يُنظر إليه من بعيد؛ لقد صارت عليهم. وجاء الجار والمجرور قبل الخبر في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾، فيتقدم المحاصرون في الصورة، ثم يقع عليهم الإغلاق بكل ثقله. النار فوقهم وحولهم، والباب مغلق عليهم، والإحاطة متجهةٌ إليهم خاصة. ليسوا عابرين بجوارها، ولا واقفين على حدودها، بل واقعون تحت سلطانها، وقد انقطع ما بينهم وبين الخارج.

إن كلمة ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ تعني مطبقةً مغلقةً إغلاقاً محكماً. وليست كل الأبواب سواء؛ فهناك باب مغلق يمكن أن يُفتح، وباب وراءه مفتاح، وباب يمكن كسره، أما الإيصاد في هذا السياق فيرسم إغلاقاً قد انتهى أمره، لا يملك المحبوسون دفعه، ولا يصل إليهم من ورائه مدد. لقد تحولت الحطمة من نارٍ تحيط بالجسد إلى عالمٍ مغلق لا منفذ منه.

وما أقسى الإغلاق على من عاش يتوهم أن ماله مفتاح كل باب. لقد اعتاد أن يرى الأبواب المغلقة تفتح إذا دفع، والمواقف الصعبة تلين إذا أنفق، والناس يعيدون ترتيب مواقفهم حين يشعرون بثقل ماله ونفوذ. ربما كان

يظن أن لكل إنسان ثمناً، ولكل موقف صفقة، ولكل حارس طريقاً إلى الإقناع؛ حتى تشكّل في نفسه يقينٌ عملي بأن لا شيء مغلقاً إغلاقاً نهائياً أمام الثروة.

لكن الحطمة تعلن نهاية اقتصاد الدنيا كله؛ فلا شراء، ولا فدية، ولا تفاوض، ولا مهلة، ولا مفتاح يصنعه المال. كل الأبواب التي فتحها له في الأرض تنتهي عند هذا الباب؛ يقف الرصيد خارجه، ويسقط النفوذ خارجه، ويبقى الإنسان وحده خلف الإيصاد. ما ظنه قوةً مطلقة لم يستطع أن يحدث شقاً واحداً في جدار المصير.

كان صاحب المال يبيّن الخزائن المغلقة ليحفظ ما جمع، ويقيم حول ممتلكاته الأبواب والأسوار، ويستريح كلما زاد إحكام الأقفال؛ فإذا الجزاء يأتيه من جنس الصورة التي أحبها، ولكنها تنقلب عليه. كان يغلق على المال خوفاً من خروجه، فإذا النار تُغلق عليه فلا يستطيع هو الخروج. كانت الخزانة تحت سلطانه، يفتحها متى شاء ويغلقها متى شاء؛ أما الحطمة فهي خزينة الجزاء التي صار هو بداخلها، وليس المفتاح في يده.

وفي هذا الانقلاب تنكشف عبثية الشعور بالسيطرة؛ فالإنسان يستطيع أن يملك مفاتيح كثيرة، لكنه لا يملك مفتاح وجوده نفسه. يستطيع أن يغلق

بيته، لكنه لا يغلق باب المرض؛ ويحكم الحراسة حول ماله، لكنه لا يحرس قلبه من التعلق؛ ويمنع الناس من دخول أرضه، لكنه لا يمنع ملك الموت من بلوغ أجله بأمر الله. كل سيطرة بشرية جزئية وموقوتة، وكل باب يملكه الإنسان قائمٌ داخل ملك الله.

إن السورة بدأت برجلٍ يفتح أبواب أعراض الناس، وانتهت بنارٍ تغلق أبوابها عليه. كان يهتك المستور، ويستخرج العيب من خفائه، ويعرض الأسرار في المجالس، ولا يرضى أن يبقى للإنسان بابٌ يحمي خصوصيته وكرامته؛ فإذا بباب الحطمة يُغلق عليه. ومن لم يحفظ للناس حرمة الأبواب التي سترهم الله خلفها، انتهى - إن مات مصرًا مستحقًا للوعيد - إلى إغلاقٍ لا يملك رفعه.

وكان يفتح فيه ليغلق على الآخرين منافذ الدفاع عن أنفسهم؛ يصنع عنهم صورةً ساخرةً ثم يوزعها في الناس حتى يجد المظلوم نفسه محاصرًا بروايةٍ لا يستطيع الخروج منها. كم من إنسان أغلق عليه الهمزة الهمزة أبواب المجتمع، ففقد عملاً أو صداقةً أو مكانةً بسبب إشاعة! وكم من بريء عاش داخل تهمةٍ صنعها لسان، وكلما حاول الخروج منها أعادها الناس إليه! إن الإيذاء بالكلمة

نوعٌ من الإيصاد؛ لأنك قد تحبس إنساناً في صورةٍ خاطئة، وتجعل الآخرين لا يرونه إلا من خلالها.

وهنا يكون الجزء كاشفاً لحقيقة الفعل: الذي حاصر الناس بكلماته يُحاصر، والذي أقام حولهم جدران السخرية يُغلق عليه، والذي لم يترك لضعفهم منفذاً إلى رحمته لا يجد منفذاً من الحطمة. وليس في ذلك ظلمٌ أو تشفٍّ، بل عدلٌ إلهي يرد الأشياء إلى مقاديرها ويكشف للإنسان ما كان يصنعه حين ظنه هيناً.

والإغلاق في ذاته صورةٌ من أشد صور العذاب النفسي؛ فالإنسان يحتمل الضيق إذا رأى باباً، ويصبر على الطريق الشاق إذا لاح في نهايته أفق، ويقاوم الألم إذا ظن أن له نهاية. أما حين يغلق المكان، وينعدم الأفق، ويسقط احتمال الخروج، فإن الألم يحيط بالوعي قبل أن يحيط بالجسد. ولهذا لم تكتفِ السورة بوصف النار وبلوغها الأفئدة، بل أضافت الإيصاد؛ لأن غياب المنفذ جزءٌ من الهول.

إن الرجاء قدرةٌ عظيمةٌ أودعها الله في الإنسان؛ يحمل بها المرض والسجن والفقر، ويجتاز بها الليالي الثقيلة، ويستمد منها قوةً لا تمنحها الظروف نفسها. لكن الرجاء في الآخرة لا يُصنع بالأمانى التي لم يصدقها العمل؛ هناك ينتهي

زمن الاختيار، وتتعلق صحيفة السعي، ويعرف الإنسان أن الباب الذي كان مفتوحاً له في الدنيا قد أغلق. ليست المأساة أن باب الحطمة مؤصد فحسب، بل أن باب التوبة ظل مفتوحاً عمراً كاملاً ثم لم يدخله.

كم مرة مرّت عليه آيةٌ تحذّره فلم يقف؟ وكم إنسانٍ نصحه فلم يسمع؟ وكم موعظةٍ هزّت قلبه لحظةً ثم عاد إلى أرقامه؟ وكم فرصةٍ أتيحت له ليعتذر ممن لمزهم فحمله الكبر على الصمت؟ لقد كانت الأبواب مفتوحة من جهات كثيرة: باب الاستغفار، وباب ردّ المظالم، وباب الصدقة، وباب التواضع، وباب إصلاح اللسان، لكنه عاش يطلب فتح أبواب الزيادة في المال، وترك أبواب النجاة حتى أغلقت.

من هنا ينبغي أن تُقرأ ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ في الدنيا بوصفها دعوة عاجلة إلى عبور الباب المفتوح. ما دام الإنسان يسمع الآية ويتأثر بها ويقدر على التوبة، فليس الباب مؤصداً عليه؛ إنما يُخبر عن الإيصاد كي ينجو منه، ويرى النهاية كي يغيّر الطريق. كل خوفٍ يردّك إلى الله رحمة، وكل وعيدٍ يمنعك من ظلم إنسان نجاة، وكل آيةٍ تحطم فيك وهماً تبني لك مخرجاً.

ثم تأتي الصورة الأخيرة:

﴿فِي عَمْدٍ مُّدَّةٍ﴾.

وقد تنوعت عبارات المفسرين في بيان كيفية هذه العمد؛ فقليل: هي عمدٌ توصد بها الأبواب وتوثق، وقيل: قيودٌ أو أعمدة يُشدُّ بها أهل النار، وقيل غير ذلك مما يدور حول معنى الإحكام والحبس والامتداد. ولا ينبغي الجزم بكيفيةٍ لم يفصلها النص تفصيلاً قاطعاً؛ فحقائق الآخرة أوسع من تصورات الدنيا. غير أن الصورة الجامعة واضحة: إغلاقٌ ليس عارضاً ولا هشاً، بل مؤيدٌ بعمدٍ مُدَّةٍ تزيد الحصار إحكاماً، وتنفي احتمال الانفلات أو الانكسار.

إن العمدة في البناء تحمل السقوف وتثبت الجدران، أما في هذا المشهد فتدخل في بنية الإغلاق والعذاب؛ والممددة توحى بالطول والامتداد والاستمرار في المشهد، فلا فجوة بين عمودٍ وعمود تصلح للنفاذ، ولا قصراً يسمح بتجاوزها، ولا ضعفاً في البناء يمكن أن يتسلل منه الرجاء الكاذب. كل شيءٍ في خاتمة السورة يقول: انتهت إمكانات الهرب التي عاش عليها الوهم.

وكان صاحب المال مولعاً بالامتداد؛ يريد لماله أن يمتد، ولا سمحاً أن يمتد، ولسلطانه أن يمتد، ولعمره أن يمتد. يبني مشروعاتٍ تتجاوز حاجته، ويجمع لأجيال لم تولد، ويتخيل أن امتداد ممتلكاته امتدادٌ لذاته؛ فإذا آخر ما يواجهه عمدٌ مُدَّةٍ، لكن الامتداد هنا ليس امتداد الحياة التي أرادها، بل امتداد

الحصار الذي لم يحسبه. ما طلبه في صورة نعمةٍ موهومة عاد إليه في صورة عذابٍ حقيقي.

كان يقول للبال في باطنه: مدّ عمري، فامتدت غفلته؛ وكان يريد أن يمد سلطانه على الناس، فامتدت آثار ظلمه؛ وكان يمد لسانه في أعراضهم، فواجه في النهاية عمداً ممددة. إن القرآن لا يختار ألفاظه بمعزل عن نظام السورة؛ فالصوت الأخير لا ينفصل عن الفكرة الأولى، والصورة التي تُغلق بها السورة تجمع داخلها تاريخاً كاملاً من الامتداد الخاطيء: امتداد اللسان، وامتداد الجمع، وامتداد الأمل، ثم امتداد العمد.

ويمكن للإنسان أن يعيش في الدنيا داخل إيصادٍ من صنعه، وإن كان ذلك لا يغني عن حقيقة العذاب الأخروي ولا يستبدل بها. فعبادة المال تغلق القلب داخل دائرة ضيقة؛ كلما جمع خاف، وكلما خاف جمع، وكلما زاد المال زادت حاجته إلى الحراسة، وكلما اتسعت ممتلكاته ضاقت روحه. يظن أنه يتحرك في عالمٍ واسع، لكنه في الحقيقة يدور بين أربعة جدران: الطمع، والخوف، والمقارنة، ووهم البقاء.

والهمزة اللهزة يعيش هو الآخر داخل سجنٍ نفسي؛ فقد حبس نفسه في عيوب الناس، فلا يرى جمالاً إلا بحث عن نقصه، ولا يسمع مدحاً إلا

قاومه، ولا يدخل مجلساً إلا احتاج إلى ضحية. إنه محروم من راحة القلب الذي يحب الخير للخلق؛ لأن كل نجاح لغيره تهديد، وكل فضيلة عند سواه استفزاز، وكل حضور قوي يوقظ فيه الحاجة إلى الطعن. يضحك كثيراً، لكنه لا يعيش الفرح؛ فالضحك الذي يُبنى على تحطيم الناس صوتٌ مرتفع لقلبٍ مغلق.

وهذه الإغلاقات الدنيوية مقدماتٌ معنوية تكشف طبيعة الطريق، لكنها ليست هي الحطمة نفسها؛ فالحطمة نار الآخرة حقاً، والإيصاد فيها حق، والعمد الممددة حق كما أخبر الله. غير أن من رحمة القرآن أنه يجعل للغيب علاماتٍ أخلاقيةً في النفس؛ فنعرف من طبيعة المعصية إلى أي مصير تقود، ونشعر بأن القلب الذي يختار الانغلاق عن الرحمة يهيئ نفسه لحصارٍ أعظم إذا لم يتب.

إن الذنب في بدايته بابٌ يدخله الإنسان بإرادته، ثم قد يتحول مع التكرار إلى جدار، ثم إلى سجن، ثم يصعب عليه أن يتصور الحياة خارجه. يبدأ الهمز كلمةً، ثم يصير أسلوب حضور؛ ويبدأ جمع المال حاجةً، ثم يتحول إلى تعريف للذات؛ ويبدأ تأجيل التوبة مرة، ثم يصير عمراً كاملاً. وكل عادة سيئة عمودٌ

جديد يمتد في سجن القلب، حتى يستيقظ الإنسان في مكانٍ صنع أكثر جدرانته بيديه.

لكن المؤمن لا ييأس ما دام في الدنيا؛ يستطيع أن يهدم هذه العمدة بالتوبة، وأن يفتح نوافذ قلبه بالرحمة، وأن يخرج من سجن المقارنة بالشكر، ومن سجن الشح بالإنفاق، ومن سجن اللز بحفظ اللسان، ومن سجن الخلود الكاذب بذكر الموت والآخرة. ليس أحدٌ محكوماً بماضيه ما دام باب الله مفتوحاً؛ وقد تكون لمعة الخوف التي أحدثتها السورة بداية انهزام جدارٍ عاش الإنسان خلفه سنوات.

ومن تمام التوبة من الهمز والهمز ألا يكتفي الإنسان بالاستغفار العام، بل ينظر في المظالم التي صنعها. إن كانت له كلمةٌ نشر بها باطلاً وجب عليه أن يصلح ما استطاع، وإن شوه سمعةً ردَّ إليها اعتبارها بالقدر الممكن، وإن آذى إنساناً طلب عفوّه بحكمةٍ لا تزيد جرحه، وإن كان التصريح سيجلب ضرراً أكبر دعا له وذكره بخير في المواطن التي ذكره فيها بسوء. فحقوق العباد لا يعالجها ندمٌ غامض وحده، بل صدقٌ يحمل صاحبه على الإصلاح.

وكذلك التوبة من عبودية المال ليست أن يتخلص الإنسان من كل ما يملك، بل أن يعيد بناء صلته به؛ يؤدي حق الله، ويتحرى الحلال في جمعه،

ويعدل في إنفاقه، ويوسع على من تلزمه نفقتهم، ويجعل للضعفاء نصيباً، ولا يسمح للمال أن يغيّر نبرة صوته مع الفقير. قد يبقى المال في يده كثيراً، لكن الإيصاد ينكسر حين لا يبقى القلب محبوساً داخله.

إن الاختبار الصادق لحرية القلب ليس مقدار ما تملك، بل مقدار ما تستطيع أن تفارق؛ هل تستطيع أن تترك ربحاً محرماً ولو كان كبيراً؟ هل تستطيع أن تعطي من شيء تحبه؟ هل تستطيع أن تحترم من لا يملك لك نفعاً؟ هل تستطيع أن تقول الحق أمام من تخشى خسارة عطائه؟ هناك يظهر هل المال في يدك أم أنك في قبضته.

والاختبار الصادق لطهارة اللسان ليس صمتك أمام القوي، بل كلامك عن الضعيف والغائب؛ فالقوي تحرسه قوته، أما الغائب فلا يحرسه في مجلسك إلا إيمانك. وقد يصمت الإنسان عن لمز صاحب النفوذ خوفاً، ثم يطلق لسانه فيمن لا يستطيع الرد؛ وهذا ليس أدباً، بل جبنٌ يرتدي ثوب الانضباط. التقوى أن يكون للغائب في قلبك حارسٌ من الله، وأن تعطيه من العدل ما تعطيه للحاضر القادر.

وتغلق السورة مشهدها بالعمد الممددة، ولا تختم بوصف صاحب المال نادماً أو مستغيثاً؛ لأن المقام مقام إنذار قبل أن يأتي الندم. إنها تريد أن يبقى

القارئ واقفاً أمام صورة الإغلاق، وأن يحملها معه إلى الحياة، لا ليستسلم للرب، بل ليعرف قيمة الباب المفتوح الذي ما زال أمامه. أحياناً تكون النهاية المغلقة هي التي تدفعنا إلى فتح البداية من جديد.

إن كل صباح يعيشه الإنسان باب، وكل فرصةٍ للاعتذار باب، وكل مالٍ يستطيع إنفاقه باب، وكل مجلسٍ يستطيع أن يحفظ فيه عرض غائب باب، وكل خاطر كبيرٍ يستطيع أن يدفعه باب. حياة الإنسان ممرٌ من الأبواب الصغيرة، والنجاة الكبرى تُبنى من اختياراتٍ قد تبدو صغيرة: كلمةٍ لم يقلها، وسخريةٍ لم يشارك فيها، ومالٍ لم يمنعه، وعيبٍ ستره، وإنسانٍ احترمه حين كان في مقدوره أن يذله.

وحين نقرأ السورة من أولها إلى آخرها نجد أن صاحبها أغلق على نفسه المصير خطوةً خطوة. همز الناس فأغلق باب الرحمة، ولمزهم فأغلق باب التواضع، وجمع المال فأغلق باب البذل، وعدّده فأغلق باب القناعة، وحسب أنه أخذه فأغلق باب الاستعداد للموت؛ حتى جاء الإيصاد الأخير نتيجةً لمسارٍ طويل من الإغلاقات التي اختارها. لم تبدأ العمدة الممددة في آخر السورة فجأة؛ كانت بذورها تمتد في قلبه منذ الآية الأولى.

وفي المقابل، يفتح المؤمن طريق النجاة خطوةً خطوة: يحفظ كرامة الناس فيُفتح له باب الرحمة، وينفق المال فيُفتح له باب البركة، ويذكر الموت فيُفتح له باب الاستقامة، ويتواضع فيُفتح له باب معرفة نفسه، ويتوب فيُفتح له باب المغفرة. وبين الإيصاد والفتح يقف قلب الإنسان كل يوم، يختار بالكلمة والنية والدرهم أيّ البابين يريد.

لقد كانت السورة تسع آيات، لكنها نقلتنا عبر مصيرٍ كامل: من مجلسٍ يضحك فيه الهمزة الهمزة، إلى يدٍ تجمع، وعقلٍ يعد، وقلبٍ يحسب الخلود، ثم إلى كلمة ﴿كَلَّا﴾ التي تهدم الوهم، فيألي النبذ في الحطمة، ثم إلى السؤال المهيّب عن حقيقتها، فيألي نار الله الموقدة، فيألي الأفتدة التي تطلع عليها، وأخيراً إلى الإغلاق والعمد الممددة. حركةٌ تبدأ من كلمةٍ خرجت بلا خشية، وتنتهي بصاحبها خلف بابٍ لا يُفتح.

كان حُرّاً حين تكلم، ثم صار أسيراً لما تكلم؛ وكان قادراً حين جمع، ثم صار عاجزاً عما جمع؛ وكان يملك فرصة التوبة، ثم صار وراء الإيصاد. وهذه هي مأساة الإنسان حين يستخدم حريته المؤقتة في صناعة سجنه الأبدي: لا تسلبه المعصية حريته دفعةً واحدة، بل تقنعه أولاً أنها تعبيرٌ عن القوة، حتى إذا اكتمل طريقها اكتشف أنها كانت تبني حوله الجدران.

أما الطريق الآخر فيبدأ من الاعتراف: أنا عبدٌ لا يخلدني مال، ولا ترفعني
إهانة إنسان، ولا تُنقصني فضيلة غيري، ولا ينفعني إلا ما قدّمت. حين يقول
القلب هذه الحقيقة بصدق، تسقط حاجته إلى الهمز، ويخف تعلقه بالتعديد،
ويصبح الموت بوابةً إلى الاستعداد لا شبحاً يطرده، ويتحول المال من جدار
إلى جسر.

وهكذا تنتهي سورة الهمزة لا عند النار وحدها، بل عند السؤال الذي
تضعه في قلب كل قارئ: ما الأبواب التي تغلقها اليوم على نفسك، وما العمد
التي تمدها في داخلك، وما الكلمة التي لو منعها لانفتح لك طريقٌ إلى الله؟ إن
الإيصاد الأخير لا يُدفع بعد وقوعه، لكن آيته تُبلى الآن، وباب الرحمن
مفتوح الآن، واللسان ما زال قادراً على الصمت والذكر والاعتذار، واليد ما
زالت قادرةً على البذل، والفؤاد ما زال قادراً أن ينكسر فينجو.

فطوبى لمن حطّم في الدنيا صنم المال قبل أن تدركه الحطمة، وأغلق باب
الهمز قبل أن يُغلق عليه، ومدّ يده بالخير قبل أن يرى العمد الممددة، وعرف
أن الخلود لا يُشترى، بل يُطلب بالإيمان والعمل الصالح في دارٍ لا يملكها
المال، وإنما يملك أمرها الله وحده.

تم بحمد الله وتوفيقه